Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرؤية الغائبة

د. مصطفى الفقى

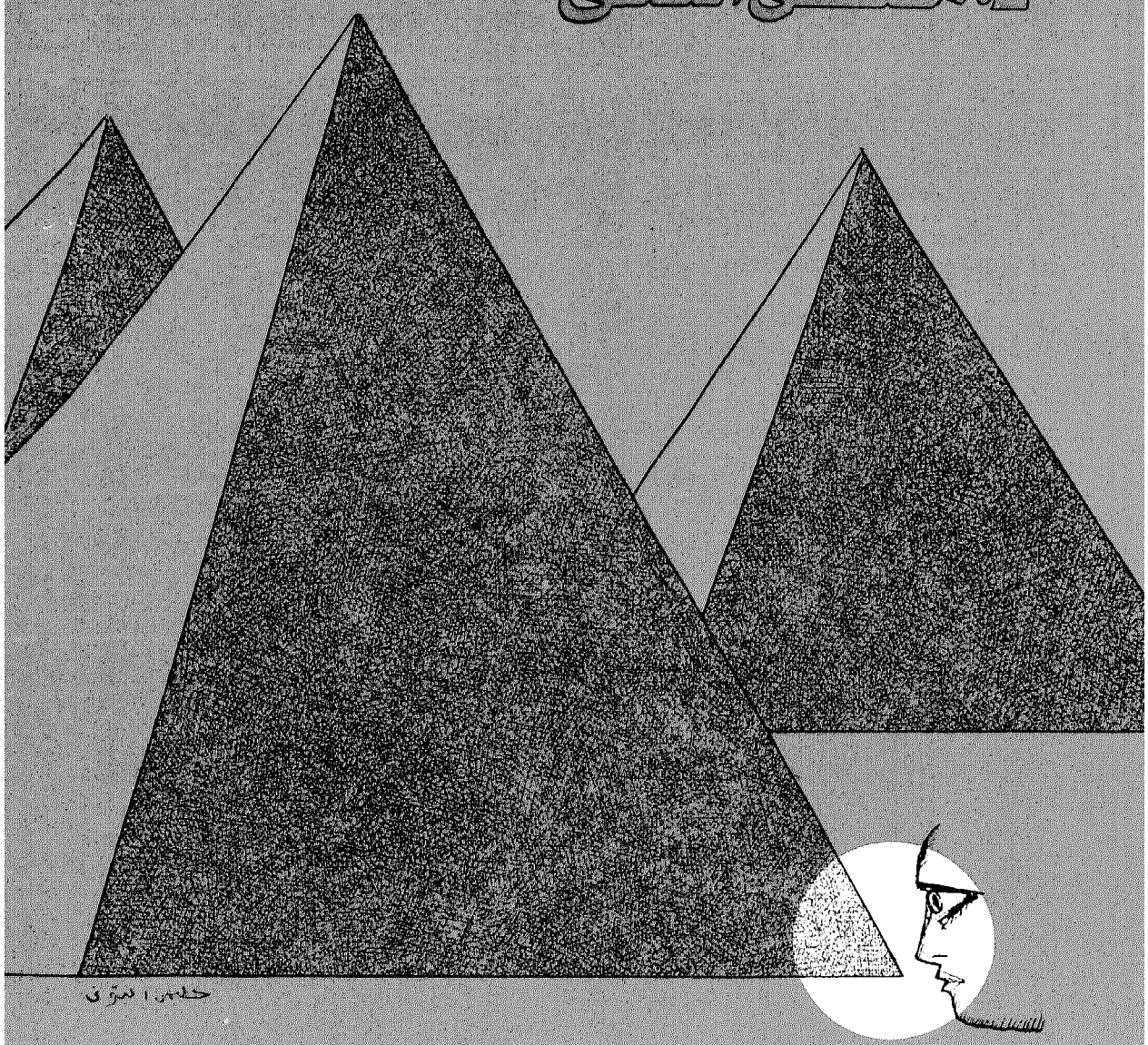

دار الشروق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرّؤيَة الغائبَة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية ص.ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٦٢٣٥٤٨ - ٢٦٢٣٣٩٨ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د. مصطفى الفقى

الرّؤيَة الغائبَة

دار الشروق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إهـــداء

إلى الذين يحملون هموم العصر ..
إلى الذين تستغرقهم أحلام الغد ..
أسوق هذه الصفحات ..

مصطفى الفقى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

عكفت ـ مثل غيرى من أبناء هذا الوطن ـ فى السنوات الأخيرة متأملا أحوال الشعب المصرى والأمة العربية فى محاولة للوصول إلى تصور شامل لمستقبلنا والبحث فى أسباب التردى الذى نعانى منه وامكانية الخروج من المأزق الذى نواجهه ، ولقد خامرنى شك كبير فى أننا لا نتمتع حتى الآن بنظرة كلية للأمور ، وأننا نكتفى بتجزئة المواقف وتشتيت الأفكار وبعثرة الجهود ، وبدأت ـ مثل غيرى ـ فى البحث لدى أمم سبقتنا على طريق التقدم ، والتنقيب عن شعوب تماسكت أمام المحن لكى أكتشف فى النهاية أن غياب الرؤية هو الذى يمثل قضية القضايا ويعتبر المفتاح الحقيقى لكل الأبواب .

فإذا كان هناك من تحدث ـ بحق أوبغير حق ـ عن " الفريضة الغائبة " ، كما تحدث آخر عن " الحقيقة الغائبة " ، فإنه يتعين علينا مع صفحات هذا الكتاب، بما يتضمنه من موضوعات مختلفة ، وما يثيره من مسائل متنوعة ـ أخذ بعضها شكل المقال المنشور، بينما كان بعضها الآخر موجزا لدراسات تمت ـ أن نحاول التعبير بوضوح عن جوهر الرسالة المحددة التى نبعث بها ، والقضية التى نسعى لطرحها ونحن أمة تقف على أعتاب قرن قادم بل وألفية جديدة من التاريخ الميلادى كله .

فماذا نعنى بداية بالرؤية لكى نتحدث عن غيابها أو افتقاد تأثيرها ؟ إن الرؤية فى ظنى هى ذلك التصور الشامل والإلمام الكامل بكافة جوانب ما نتصدى له ، فهى تعنى بالضرورة الاتجاه نحو المستقبل ، كما إنها تشير دائما إلى خصوبة الخيال الذى نستشرف به ملامح الغد ، لذلك فإن الرؤية لا تتوفر إلا برصيد مقبول من المعرفة الكلية ، ونصيب معقول من الثقافة الأفقية التى تنال من كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تخصص قدرا يتميز بالعمومية، ولا يحتاج بالضرورة إلى عمق التخصص الرأسى ، فلقد كانت لكل حضارة قديمة رؤية ، ولكل دولة قوية رؤية ، بل لقد اقترن وجودها دائما بالمضى قدما إلى الأمام، حتى إننا إذا انتقلنا إلى المستوى الفردى فسوف نجد أنه ما من مفكر مرموق أو فليسوف معروف أو عالم فذ أو فنان ذائع الصيت ، إلا وقد وقفت وراء أعماله رؤى شاملة وتأملات عميقة ، لذلك فإن هذا الكتاب الموجز يعالج فى حقيقة الأمر مسألة محورية تتعلق بالشأن العام وتحتل مكانها فى مقدمة أولويات التعبئة من أجل المستقبل والتنمية من أجل الأجيال القادمة .

فإذا كنا نحن المنتمون للثقافة العربية ، بخيالها الرحب وبدائلها المتعددة ومفرداتها الثرية ، فنحن أحق الناس بامتلاك الرؤية وحيازة البصيرة لأنها أيضا نتاج دروس تعلمناها من تعاقب الحضارات وتزاوج الثقافات ، على نحو يجعلنا أقدر من غيرنا على فهم مسار التطور وادراك فلسفة التاريخ . ولقد شهدنا فى السنوات الماضية خلطا واضحا بين الرؤية والخطة .. بين الهدف القومى العام والمشروع الفكرى للوطن ، وبين بعض الانجازات التى تتحقق ولكنها لا تعبر فى مجملها ـ مع اختفاء التناسق بينها ـ عن رؤية عامة .. لذلك فقد افتقدت الأجيال الجديدة وضوح الرؤية وصواب الهدف فسقطت منهم أعداد لا يستهان بها فريسة الضباب الذى يحجب تلك الرؤية ، والأعاصير التى تمزق أوصال الأمة ، وعمى الألوان الذى يؤدى إلى خلط الأوراق وانزواء الهدف .

ونحن حين نتناول فى الصفحات التالية من هذا الكتاب نماذج للبحث عن الرؤية، وأمثلة للتركيز على الغاية ، فإننا نحاول أن نضع أنفسنا على بداية الطريق الصحيح حتى نتمكن من الإمساك بالظاهرة المرضية ، وتشخيص أعراضها توصلا لعلاجها والتخلص من آثارها ، ولسنا هنا فى مقام توزيع المسئولية أو توجيه الاتهام ، ولكننا نعتقد أن العامل الثقافى يلعب دورا حاكما فى ذلك ، فالثقافة هى التى تضع اطار الرؤية وتحدد " احداثيات" مسارها ، من هنا فإن الرؤية مسألة تقترن بالبيئة الثقافية والتراث الاجتماعى وتنعكس عليها محصلة القيم السائدة وتؤثر فيها مجموعة التقاليد الموروثة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونحن ـ فى منطقة الشرق الأوسط ـ لفرط ما لدينا من تاريخ طويل وميراث ثقيل ، فإن الرؤية دائما تقوم على مرجعية زمنية تشدنا إلى الوراء ، بينما الأصل فى الرؤية أنها تدفع إلى الأمام . والأمثلة كثيرة حولنا والنماذج تحيط بنا ، فلو قارنا العربى فى بلاده ، بنظيره الآسيوى فى الشرق الأقصى ، لاكتشفنا فى يسر ووضوح أن الرؤية مسألة نسبية ترتبط بنسق حضارى معين ، وبناء ثقافى محدد . فالآسيويون على سبيل المثال برعوا فى تشكيل نظرة للمستقبل من خلال منظور مباشر تأثر بفلسفاتهم القديمة ، وحضاراتهم العريقة ، ولكنه لم يضع فى الوقت ذاته قيدا على معدل الحركة إلى الأمام، بحيث تحقق لهم انفصال كامل بين الولاء للتراث الذى تتشكل به الشخصية القومية ، وبين الانتماء للحاضر الذى تنطلق منه المسيرة نحو المستقبل .

إننى أهدف من اصدار هذا الكتاب إلى التنبيه للمخاطر التى تحيط بكل من يفتقدون الرؤية وتغيب عنهم البصيرة لأننا نعيش عصرا حافلا بالمتغيرات الدولية والتحولات الاقليمية على نحو غير مسبوق فى تاريخ الجنس البشرى كله ، بحيث أصبح واضحا أن كل نظام سياسى لا يستند إلى فلسفة شاملة أو رؤية ناضجة إنما هو فى طريقه إلى التردى والضياع ، و " الرؤية الغائبة " التى نتحدث عنها ليست أمرا عسير التحقيق أو صعب المنال ، فهى الأرضية الصلبة التى تقف عليها الأمم، والجسر الذى تعبر فوقه الشعوب ، كما أنها مطلب حيوى لا بديل عنه ، وهى فى النهاية النغمة الصحيحة التى تصدر عن العقل والقلب معا داخل الجسد الواحد ، إنها الوجدان النابض والضمير الحى ، من تملكها أمسك بزمام الحاضر وأدرك روح المستقبل، ومن افتقدها بدت الحانه انغاما نشازا وأصبحت جهوده طحنا فى الهواء وتحولت أفكاره فى النهاية إلى خواء .

دعونا نفكر بأسلوب أمين تبدأ مصداقيته من علاقة الفرد بذاته وصولا إلى دوره فى أمته بحيث تقف الثقافة والتعليم ... السياسة والاقتصاد ... التقدم الفكرى والبحث العلمى ... كلها فى إطار رؤية عميقة ، ونظرة شاملة ، وفلسفة متكاملة يمكن توظيفها جميعا لخدمة أهدافنا ، وتحقيق غاياتنا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الصفحات التالية ، بما تحتويه من تعدد فى الموضوع واختلاف فى الفكرة، تلتقى كلها تحت مظلة واحدة تحميها من غيوم الذاتية ، وأجواء الشخصانية ، وتتجه فى معظمها نحو نقطة التقاء واحدة هى البحث فى المستقبل والانطلاق نحو آفاقه واعادة ترتيب الأوضاع قبل أن ندق أبواب القرن القادم بسنوات قليلة ، وكأننا نريد لأجيالنا القادمة ــ وقد تحققت لها وسائل التقدم العلمى ومصادر التثقيف الذاتى ــ ألا تعيش نفس المعاناة التى ذقناها ، أو المصاعب التى واجهناها، فقيمة كل جيل جديد ومكانته تنتسب في النهاية إلى الجيل الذى علم، والماضى الذى أضاء ، ونحن واثقون من أن حاضرنا هو بالضرورة أفضل من ماضينا، كما أن مستقبلنا سوف يكون أفضل منهما معا...

رحلة تمضى .. وحياة تستمر .. ورؤية لا تغيب .

د . مصطفى الفقى

القاهرة ١٩٩٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرؤية الغائبة والوعى المفقود

ولدت الأفكار العظيمة فى تاريخ الإنسانية ، وبـدأت الفلسـفات الكـبرى عـبر مسيرة الجنس البشرى لدى أولئك الذين يملكون القدرة على الخيـال الحـر وإبـداع التصور الشامل ، وهم الذين استطاعوا أن يرتادوا المستقبل من خـلال نظـرة طويلـة المدى لا تقف أمام الجزئيات ، ولا تختلط لديهـا الفرعيـات .. والفـارق بـين فـرد وآخر، بل بين نظام سياسى وغيره، يكمن فى وجـود الرؤيـة مـن غيابهـا ، فهـى التى تحدد قيمة الفرد وتطـرح أيضـا الأسـهم الحقيقيـة التـى تمثـل رصيـد النظـام السياسى ..

ونحن العرب نكاد نكون النموذج الأمثـل للانفصـال الكـامل ـ علـى المسـتوى السياسى ـ بين الرؤية والسلطة ، بـين الوعـى والواقـع .. فكثـيرا مـا نكتشـف أن أولئك الذين يملكون الرؤية لا يملكون ـ غالبـا ـ السـلطة ، بينمـا نجـد أن أولئـك الذين يملكون السلطة يفتقدون ـ أحيانـا ـ الرؤيـة ، وهـى محنـة حقيقيـة تعكـس الغياب الواضح لأدوات عصر جديد تصل به البشـرية ـ بعـد سـنوات قليلـة ـ إلى الألفية الثالثة فى التقويم الميلادى وهو الأكثر شيوعا فـى التـأريخ لحركـة الإنسـان على الأرض .

ولن نجد صعوبة فى إثبات العلاقة بين النظـم الكـبرى والأيدلوجيـات المؤثـرة وبين الرؤى التى انبثقت عنها والإرهاصات التى أدت إليها .. ألم تكـن الماركسـية ثم الصهيونية وأيضا النازية كلها نتاجا لرؤية أوربيـة فـى فـترات مختلفـة ـ عـبر قرنين من الزمان ـ أسهم فيهـا العقـل الألمـانى بنصيـب وافـر برغـم التبـاين بينهـا واختلاف الدوافع إليها؟ فإذا كانت الماركسية فكرا ماديا يتصور مجتمعا شيوعيا في النهاية نجد الصهيونية دعوة قوميـة دينيـة متعصبـة ، بينمـا النازيـة وهـم عرقـى مجنون .... بل إن الأطروحات القومية للأمم والأمانى الوطنية للشعوب هـى أيضـا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعبير عن رؤية معينة لجماعة من البشر فى وقت بذاته .. ولو أخذنا " الإسلام السياسى " بمفهومه الصحيح لوجدناه هو الآخر يمثل رؤية محددة تسعى إلى الشمول وتعتمد على نظرية متكاملة .

والنماذج عديدة لأصحاب الرؤى الثاقبة فى التاريخ الحديث ، قد نشير لبعض رموزها ، فالحاكم الذى وضع اللبنات الأولى فى بناء الدولة العصرية المصرية معتمدا على نزعة استقلالية عن الخلافة العثمانية ، والذى أقام الجسور والقناطر وشيد المصانع وجيش الجيوش وبنى المدارس وأرسل البعثات إلى الخارج ليعود طلابها حاملين شعلة التنوير منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر .. إن هذا الحاكم ـ برغم أنه لم يكن مصريا ـ هو نموذج لتوظيف السلطة لخدمة الرؤية ، كما أن حفيده الذى كان يحلم بمصر قطعة من أوروبا ـ برغم كل ما عليه ـ هو أيضا حاكم ذو رؤية حتى ولو اختلف البعض معه .

وفارس "نجد" الذى وحّد الجزيرة العربية وجمع أطرافها تحت لواء دولة واحدة أصبحت تحمل إسم " المملكة العربية السعودية" هو فى النهاية صاحب رؤية مبكرة ، قاتل لتحقيقها وسعى للوصول إليها ..

والجنرال الذى قاد المقاومة الفرنسية من الخارج خلال الحرب العالمية الثانية ثم احتاجته بلاده مرة أخرى لينتشل فرنسا من مستنقع حرب التحرير الجزائرية ويخرج بها من المأزق الذى كانت تواجهه ، هو نموذج لوطنى فرنسى كانت له رؤية واسعة وسياسة واضحة داخل أوروبا وأمام الولايات المتحدة الأمريكية بصورة تركت بصماتها على روح العصر كله .

إننى أزعم هنا أن حق الخيال هو أغلى ما أعطاه الخالق للبشر حتى يصبح فى إمكان الإنسان الفرد أن يفكر فيما يريد ، حينما يريد ، مهما كانت أسباب المصادرة على الأفكار أو قمع الآراء ، بل إنه فى ظل أعتى الدكتاتوريات سطوة وقهرا ، وأشد الأيدلوجيات وطأة على الحريات الفردية ، فإن ومضات الفكر الحر وملكات الإبداع الإنسانى لم تتوقف أبدا .. ألم يظهر أصحاب الآراء المستنيرة وسط ظلمات التسلط والطغيان ؟ ألم يبرز مفكرون ومخترعون فى عصور الجهل والظلام ؟ فإذا اقتربنا من حاضرنا المرتبط ببعدى الزمان والمكان فإننا نستطيع أن نرصد فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واقعنا العربى المعاصر ومن خلال مأزق أمتنا القائم عددا من الشواهد المرتبطة بغياب الرؤية وفقدان الوعى ، نشير إلى بعض منها فى الظواهر التالية :

أولا : ليس كل تقديس للماضى أو حفاوة بالتاريخ أمرا مستهجنا ولكن الاستغراق فى ذلك والانغماس فيه قد يؤديان إلى شيوع المرجعيات والانصراف عن مواكبة الحاضر أو التهيؤ للمستقبل ، وتلك حالة مرتبطة بالفكر العربى وأزمته الراهنة، فالعربى ينظر وراءه أكثر مما ينظر أمامه ، وهو معنى بترديد أهازيج الماضى والعزف على أوتاره دون أن يدفعه ذلك إلى حشد إمكاناته الذاتية فى ظل ظروفه القائمة سعيا نحو غد يتطلع إليه.

ثانيا: يلحق بالظاهرة السابقة فهم مغلوط لحركة التاريخ وفلسفة التطور ، وغيبة الإدراك لمسارهما والارتباط العضوى والحتمى بين الأحداث سابقها ولاحقها، فنحن لم نصل بعد إلى التسليم بأن التاريخ لا يتكرر بذات السياق ، ونستريح دائما إلى تفسير تآمرى ليس بالضرورة صحيحا في كل الحالات ، كما أن القياس على الماضى ليس حقيقة مطلقة فى زمن التغيرات الكبرى وعصر التحولات الضخمة .

ثالثا: نضيف إلى ما تقدم القول بأن عنايتنا بالتراث تتحول أحيانا إلى موقف حمائى تجاه المستقبل ، وكأننا نتوهم أن رصيد الأجداد هو مصدر نفقة دائمة للأحفاد، غافلين عن حقيقة هامة مؤداها أن الأمم العظيمة لا تعيش بماضيها وحده، وأن الشعوب الناهضة لا تسترسل فى البكاء أمام آثارها الخالدة .

رابعا: إن الخلط بين الثوابت والمتغيرات قد أدى إلى نتائج معقدة للغاية انعكست على نظرتنا لمجريات الأمور وتطورات الأحداث ، فإذا كان تاريخ البشرية الحقيقى هو تاريخ الأفكار التى صنعت إطار القيم وحددت مفهوم التطور ، فإن الوعى بما هو ثابت وتمييزه عن ما هو قابل للتغيير هما معيار عبقرية الجماعة البشرية في زمن معين وهما اللذان يسمحان بتطور الأفكار وتجددالحياة ، فالبناء الحضارى الشامخ الذى نستند إليه ـ بمراحله المصرية ثم العربية الإسلامية ـ إنما يمثل نسقا ثقافيا لا يتصف بالتعصب ولا يجب أن يكون مبررا للجمود أو التوقف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خامسا: إن غرامنا بالنظرات الجزئية للأشياء قد حرمنا شمول الرؤية وعمومية الفكرة، فأصبح تحليلنا للحقائق قصير المدى ، وتمثلت مواقفنا تجاه الأحداث فى ردود الفعل وليس في الفعل ذاته ، كما غاب عنا التفكير الإيجابي الفاعل وانعدمت لدينا المبادرة الخلاقة، فالتناول الجزئي للأمور يؤدى إلى ركام من الحلول الصغيرة التى لا تعتمد على رؤى واضحة أو سياسات مستقرة .

سادسا: حالة الانفصام فى الشخصية التى تجعل البعض يقول ما لا يفعل ويفعل ما لا يقول ، فهذه " الشيزوفرنيا " القومية تصيب الناس بحالة من العجز عن فهم حقيقة ما يجرى أو التطلع لما يجب أن يكون ،كما أن الانفصال بين السلطة والرؤية أحيانا، والقطيعة بين السياسة والثقافة غالبا ، يؤديان إلى نوع من أزمة الثقة بين المثقفين وعناصر الحكم على امتداد الساحة العربية المعاصرة .

سابعا: إن غياب الإحساس العميق بالزمن وبالتالى نقص الوعى بروح العصر تبدو شواهد باقية للعزلة التى تحيط بنا أحيانا وتجعلنا نفكر بشكل مختلف لا يتوافق مع إيقاع العالم المتقدم ، وتلك مح صلة تراكم طويل لأحقاب تعتبر ساقطة من دورة الحضارات فى المنطقة ، فما أكثر الأمم التى غابت عن خريطة الزمان لفترة بحكم عوامل القهر الخارجى أو التخلف الذاتى، ولكنها تستعيد إدراكها فى ظل صحوة تندفع خلالها إلى الأمام برؤية سليمة ووعى كامل .

ثامنا: إن توظيف مشاعرنا القومية وحماسنا الوطنى لايزال قاصرا عن تحقيق الجانب الإيجابى له ، فلقد حسمت تلك المشاعر مواقف تاريخية لصالح أمم كثيرة، بشرط أن تتحول من مجرد انفعال جماعى عام إلى فعل شامل ومؤثر ، كأن تتحول مثلا التعبئة الشعبية الكاملة إلى توجه نحو تنمية شاملة ،أو تصبح الآلام القومية دافعا نحو المراجعة والتأمل ثم الانطلاق والتقدم ، فالأمم العظيمة تصنعها الآلام العظيمة ، والمعاناة القاسية بل والأحزان النبيلة.

تاسعا: إن هناك مردودا عكسيا يأتى أحيانا كرد فعل للاستغراق المستمر فى النقد السلبى للفعل العام أو ما يطلق عليه البعض بحق " الغرام بجلد الذات"، فتكرار الحديث عن الأخطاء دون إصلاحها ، والإشارة إلى السلبيات دون مواجهتها يخلقان شعورا بالتعود على النقص والتبلد أمام النكسات،لذلك فإن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التوازن بين شيوع روح النقد الجماعى وتوفر مناخ الثقة بالذات هو مسألة ضرورية للصحة النفسية للمجتمعات.

عاشرا: يتصور البعض أن الإصلاح يعتمد على قرارات وإجراءات فقط ، أو أن الرؤية هى مرادف للخطة ، فما أكثر ما أسرفنا فى استخدامه من تعبيرات ضخمة وشعارات مرحلية، حتى أصبحت كلمات مثل ثورة وصحوة واستراتيجية وغيرها أمرا شائعا يكاد يفقد دلالته الحقيقية مرات عديدة فى اليوم الواحد، بينما الإصلاح الحقيقى يعتمد بالدرجة الأولى على إرادة سياسية عامة ومستقرة تستند إلى رؤية شاملة، هى التى تعطى القرارات والإجراءات قيمتها وفعالية تأثيرها ..

□

.. دعنا نتطلع ـ على امتداد خريطة عربية معاصرة ـــ إلى روح جديدة نتمكن بها من استشراف المستقبل بأدوات قرن جديد نستطيع معها تحويل الأمانى القومية إلى إنجازات حقيقية ، ونوظف بها إمكاناتنا الكبيرة من أجل الإرتقاء بالجماعة البشرية ، فى ظل التعددية وثقافة الديموقراطية ، كما يجب أن ندرك أن حرية الفرد لا ينبغى أن تتحول ـ كرد فعل لسنوات من الكبت السياسى ـ إلى تسيب يسمح له بأن يخرج على إطار المصلحة العليا للأمة التى يرتبط بها ، والوطن الذى ينتمى إليه ، فالتوازن بين الفرد والدولة معادلة صعبة حان الوقت لكى نتصدى لحلها بوضوح وموضوعية دون غياب للرؤية أو فقدان للوعى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العـــرب ..
من ذاكرة الماضى إلى رؤية المستقبل

إن أمة تعيش أسيرة ماضيها هى أمة جامدة بلا حراك ، كما أن أمة لا ترتبط بتراثها هى الأخرى أمة تائهة بلا وعى .. ولا يستقيم أمر الأمم ولا تستوى حياة الشعوب إلا بالتوازن بين ذاكرتها الباقية ورؤيتها القائمة .. أما حين يكون هناك انفصام بين الماضى والحاضر فإن الضباب الكثيف لابد وأن يغلف بصيرة من يتطلعون نحو المستقبل . ونحن العرب نبدو نموذجا مثاليا للعلاقة القلقة بين الناس والزمن .. بين الإنسان والعصر .. بين الفكر والتطور .. ويكفى أن نرصد الظواهر فى حياتنا ، ونتأمل الحقائق المحيطة بنا ، حتى نكتشف موقعنا من خريطة الوجود فى عالم اليوم، ويصبح ضروريا أن نطرح هنا بعض القضايا المحورية التى يدور حولها العقل العربى ، تشده إلى أحداث وقعت ، وتستغرقه فى أمور تجرى ، وتصرفه عن غد يطل من الأفق القريب:

القضية الأولى :

إننا يجب أن نقر ـ فى شجاعة فكرية ـ أن حجم العوامل الذاتية فى حياتنا العربية يبدو أكبر نسبيا من نظيره فى المجتمعات الأخرى .. " فالشخصانية PERSONALIZATION " تلعب دورا فاعلا فى صنع شبكة من العلاقات التى تقوم على أسس غير موضوعية على نحو يعطل تأثير قاعدة " الاختيار الطبيعى " التى تسمح بانتقاء الأصلح للموقع الأنسب ، وتلك قضية جوهرية حاكمة لا ينبغى أن نغفل التعرض لها او نتهرب من مناقشتها ، فنحن بارعون فى تفصيل المواقف حسب الأهواء الذاتية ، وتطويع الإمكانات لخدمة الأغراض الشخصية ، بل إننا قادرون على تجاوز ذلك إلى حد تحويل المسائل الخاصة إلى قضايا عامة والخروج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منها بما يحقق مصلحة فردية مع مهارة خاصة فى تغليف الحقائق وتمييع الحوار وخلط الأوراق .

إننا لا نجادل ـ بالمناسبة ـ فى حق الإنسان الفرد أن تكون له تطلعاته ، وأن يمضى وراء طموحاته ، فهناك هامش متفق عليه ومسموح به لحجم العنصر الشخصى والدافع الذاتى فى حياة البشر ، ولكن حين يتحول الأمر إلى أن تصبح اهتمامات الشخص العام منصرفة فى معظمها إلى مصالحه ، وأن تدور كل أنشطته حول محور ذاته ، فتلك ظاهرة لا تشير إلى خطأ محدود ولكنها تعبر فى النهاية عن خطيئة اجتماعية ومرض يرتبط بالفعل العام والأداء القومى .. فالواقع العربى يفرز كل يوم أطروحات تعبر فى مجملها عن التزايد المستمر لوزن الفردية والجنوح نحو عبادة الذات وفتح " دكاكين " شخصية على كل مستويات حياتنا اليومية . كل ذلك فى ظل أجواء قد لا يزدهر فيها مناخ الحريات ولا ترتقى معها حقوق الإنسان ، فأصبحنا فى مواجهة تناقض واضح بين فرد يتزايد تأثيره وآخر تزوى مكانته .

القضية الثانية :

إننا ـ وفى ظل تركة الماضى الثقيل ـ عاجزون عن الوصول إلى نظرات شاملة للمواقف العامة ، ومغرمون بالنظرات الجزئية للأشياء ، وبالطرح قصير المدى للأمور ، على الرغم من أننا ننتمى إلى الثقافة العربية صاحبة الخيال الخصب ، والرؤى الواسعة ، والقدرة على التصور الرحب ، وهذا كله كان يجب أن يدفع إلى التفكير الإيجابى ، وليس إلى الوقوف عند مجرد ردود الأفعال ، والاتجاه نحو الحلول التقليدية لمشكلات غير تقليدية ، والغوص فى التفاصيل الصغيرة دون التصدى للسياسات الكبيرة .

القضية الثالثة :

إن حالة الازدواج فى الشخصية القومية قد جعلتنا نقول ما لا نفعل ، ونفعل ما لا نقول ، وصنعت هوة حقيقية بين السياسة والثقافة .. بين الاقتصاد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمجتمع.. بين من يحوزون القوة ومن يملكون الرؤية ، فاصبحت المحصلة فى النهاية سوء استخدام للسلطة وسوء توزيع للثروة ، وتصور البعض ـ عن عجز فى التفكير أو قصور فى النظرة ـ أن الخروج من المعاناة يعتمد فقط على القرارات والإجراءات ، وكأن الرؤية المطلوبة هى مرادف للخطة الموضوعة ،بينما الإصلاح الحقيقى يعتمد على إرادة سياسية .. وفلسفة شاملة ترتكز على تقاليد فكرية راسخة يمكن أن تؤدى إلى برامج مستقرة وفقا لخطوات ثابتة .

القضية الرابعة :

إن إحساسنا بالزمن يمثل جوهر التغيير إلى الأفضل ، والاتجاه نحو حياة العصر بمعطياته وتحولاته ، بينما يصبح نقص الوعى بقيمة الوقت وابتعادنا عن مجريات أمور زماننا بمثابة عزلة حقيقية تقودنا نحو الانفصام الكامل عن عالم يتطور بسرعة مذهلة ويتقدم بشكل يكاد يكون يوميا فى ظل مقولة مؤكدة مؤداها أن حالة الثبات افتراض نظرى بحت ، فإنسان العصر يبدو كمن يسبح ضد التيار ، إما أن يقهره ويتقدم أو أن يستسلم له ويتقهقر ، وفى الحالتين يستحيل التوقف عند نقطة بذاتها لأن معدلات الحركة ـ فى كون يبدو كالقرية الصغيرة ـ لا يمكن أن يسمح بجرز منعزلة تعيش بإيقاع مختلف عن منظومة العصر ، والإحساس بالزمن يمثل فى الحقيقة مفهوما نسبيا يختلف بين الحضارات ولا تتفق عليه الثقافات ويخضع فى النهاية لعوامل تتصل بالتراث القومى ، والنظرة للآخر ، والوعى بموقعنا على خريطة الزمان والمكان.

القضية الخامسة :

إننا لم نتمكن حتى الآن من تحويل طاقات الحزن أو مشاعر الألم أو حتى أطروحات النقد إلى نوع من الغضب الإيجابى ـ إن جاز التعبير ـ وهو الذى يدفعنا إلى تلافى الأخطاء وتجنب السلبيات والخروج من دائرة التردى والإحباط حتى لا يتواصل بكاؤنا على الأطلال أو نجمد أما الهزائم أو النكسات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإذا كانت تلك هى بعض القضايا التى تدور حولها العلاقة بين ماضينا ومستقبلنا مرورا بحاضرنا فإنه يتعين علينا أن نؤكد أن تقديس الماضى والحفاوة بالتاريخ ليسا أمورا مستهجنة ، ولكن شيوع المرجعيات على نحو قد يؤدى إلى الانصراف عن مواكبة الحاضر ويحرم الأجيال الجديدة من حق التهيؤ للمستقبل فتلك على ما يبدو حالة عربية بالدرجة الأولى حيث تستغرقنا أهازيج الماضى وأناشيد الذكريات عن حاضر نحياه ومستقبل نسعى إليه ، بل وتتحول أحيانا عنايتنا بالتراث إلى موقف حمائى تجاه كل فكر وافد أو تيار متجدد فى محاولة لبناء أسوار " للحماية الفكرية " بشكل لا يختلف كثيرا عن قيود " الحماية الجمركية " فى عالم تمتد فيه جسور التواصل ، وتذوب معه الفوارق ، وتختفى الحدود ، ويتكرر الحديث عن " المواطن العالمى " بعد أن تداخلت الثقافات وتزاوجت الحضارات .

إن الحديث عن الذاكرة والرؤية .. عن الماضى والمستقبل .. لابد أن يدفعنا إلى الخوض فى واقع حاضرنا الذى نحياه كما أنه مناسبة نؤكد فيها على واحد من أعظم حقوق البشر الطبيعية وأعنى به حق الخيال الحر ، والقدرة على التصور الشامل ، وملكة الإبداع اللامحدود ، فالفوارق بيننا ـ أفرادا وجماعات ـ تكمن فى حجم النظرة ودرجة عمقها من خلال استشراف المستقبل واستلهام مساره ، فالأفكار العظيمة فى تاريخ الإنسانية ، والفلسفات الكبرى عبر مسيرة الجنس البشرى ، بدأت فى خيال أصحابها ثم اختلطت بوجدانهم فى مزيج رائع من العقل والقلب ، انتهى إلى محصلة واعية ورؤية باقية تمثل رصيدا شامخا لأجيال تالية بغض النظر عن تقييم تلك الافكار على المستويين القومى أو الأخلاقى ، ولنستق نماذج من تاريخ القرنين الماضيين لبعض الأفكار الكبرى فى أوروبا الحديثة ـ على سبيل المثال ـ لنجد أن الماركسية ثم الصهيونية وأيضا النازية كلها نتاج لرؤى متعددة برغم الاختلافات بينها وتباين مصادرها .. فالخيال قد صنع الأفكار التى تحولت بدورها إلى حقائق عبر محطات عديدة كانت نقطة بدايتها أقرب إلى " المونولوج " الذاتى فى عقل فرد أو مجموعة سواء كانت تلك هى جدلية " هيجل " الفيلسوف الألمانى فى النظرية الماركسية ، أو صياغة " هرتزل " فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤتمر " بازل " بالنسبة للحركة الصهيونية ، أو ميلاد تيار يحلم بالتفوق العرقى بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى والذى تحول إلى رؤية مدمرة فى أوهام " هتلر " التى صنعت المأساة النازية .. إننى أزعم أن حق الخيال هو فى حقيقة الأمر من أعظم منح الخالق للبشر حتى يصبح فى إمكان الإنسان الفرد أن يفكر فيما يريد، حينما يريد ، مهما كانت مظاهر المصادرة على الآراء أو قمع الحريات ، وبذلك يتحقق له حق طبيعى يتغلب به على كل قيد وضعى حتى تولد الأفكار المستنيرة وسط ظلمات التسلط والطغيان، وتبرز الرؤى الجديدة فى عصور الجهل والظلام .

إنها رحلة قطعتها أمم قبلنا ، وجسور طويلة أقامتها شعوب غيرنا .. وقد استعانت كلها بحاضر يحترم العقل ، ويقدس الفكر ، ويعشق الحرية .. فهى أدوات عصر جديد يتحتم أن نسعى إليه إذا شئنا العبور من ذاكرة الماضى بأهواله إلى رؤية المستقبل بأحلامه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحضارتان : العربية والغربية
"رؤيـــة مستقبلية"

لقد دفعنى إلى اختيار هذا الموضوع عدد من الأسباب يقع فى مقدمتها :

أولا : إنه منذ نشر" البروفيسور صموئيل هنتنجتـــون " مقالـه الشـهير بعنـوان صـراع الحضـارات Clash of Civilizations فـى دوريـة " شـئون دوليـة " Foreign Affairs فى صيف ١٩٩٣ ، منذ ذلك الحين والكتابات تتوالى والتعليقات تتتابع ، حول هذا الموضوع الذى يتركز محوره حول فكرة مؤداها أن الصراع فيما نطلق عليـه (عالم جديد) لن ينطلق من أسباب أيديولوجية أو اقتصادية، بل سيكون مصـدره ثقافيا بالدرجة الأولى ، فالصراعات ستبدأ بين دول أو مجموعات إقليمية تنتمى إلى حضارات مختلفة ، بحيث تكون الخطوط التى تفصـل بـين تلـك الحضـارات هـى خطوط المواجهة فى المسـتقبل .. "ولقـد مـيز البروفيسـور هنتنجتـون " أكـبر سـبع حضارات فـى عـالم اليـوم ، وهـى : الغربيـة والكونفوشـية واليابانيـة والإسـلامية والهندوسـية والسـلافية الاورثوذوكسـية والأمريكيـــة اللاتينيـــة وقـــد تلحـــق بهـــا الأفريقية.. ولا شك أن الجدل الذى ثار حول هذه النظرية الجديدة ـ بـين مؤيديـن ومعارضين ـ يفتح بـــابـــا واســـعا للحـــوار، تبـدو أهميتـه فـى هـذه المرحلـة مـن تاريخ العالم .

ثانيا : إننا كعرب نمر بمرحلة ذات خصوصية واضحـة فـى تاريخنـا القومـى كله ، فهناك حالة من التردى العام التى وصلت بنا إلى مأزق تتصارع فيه ـ نظريـا على الأقل ـ القومية والإقليمية على ساحة المنطقة ، إلى الحد الذى توقع فيه شاعر عربى كبير إعلان وفاة العرب، وتحدث آخرون عـن هـذه الأمـة باعتبارهـا ظـاهرة صوتية ، بينما رآها آخرون خارج دائرة التاريخ المعـاصر ، وكلهـا صفـات ونعـوت تؤدى فى مجملها إلى درجة واضحة من الإحباط القومى، والارتداد الحضارى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثالثا : إن الاسلام ـ الدين والثقافة ـ وهو مكون رئيسى فى الحضارة العربية ، يبدو فى أعين كثير من غير المسلمين خصوصا فى أوساط أوروبا الغربيـة والولايـات المتحدة الأمريكية وغيرها من بقاع العـالم المتقـدم ، يبـدو وكأنـه يخضـع لـمحاولة تشويه واسعة النطاق ، تقدم ذلـك الديـن ــ الـذى تشـير كـل اصولـه إلى السـماحة والتعايش ، واحترام عقائد الآخرين ـ تقدمه وكأنه دين التعصب والعنف ، ورفـض الآخر ، وكراهية من لا يؤمنون بـه ، حتـى بـدا أتباعـه وكـأنهم متخصصـون فـى الاغتيال العشوائى ، واحتجاز الرهائن ، وتكفير الناس ، واحتكار الإيمان با لله .

رابعا : إن موجات ضخمة للهجرة تزحف من الجنـوب إلى الشـمال ، وتبـدو الآن وكأنها رد فعل تاريخى للاتجاه مـن الشـمال إلى الجنـوب فـى قـرون سـيطرة الظاهرة الاستعمارية ، ويبدو " موسم الهجرة إلى الشمال " ـ وهو تعبير مستعار مـن الأديب السودانى الكبـير" الطيـب صـالح " ــ وكأنـه حـوار حضـارى مكتـوم بـين العـالمين : المتخلـف والمتقـدم ، أو هـو اتصـال جديـد بـين حضـارات الجنـوب وحضارات الشمال .

لهذه الأسباب مجتمعة ، نبدو معنيـين بحديـث حـول مسـتقبل العلاقـة بـين الحضارة العربية والحضارة الغربيـة .. وهـو حديـث يبـدو هـذا أوانـه ، وحـوار لا تخفى على أحد أهميته .. إذ تبدو أهمية التفكير فى هذا الموضوع ، مـن الاعـتراف بأزمة الثقـة المتبادلـة تاريخيـا بـين عـدد مـن الحضـارات، نتيجـة المـزاج المنغلـق لبعضها، أو التصور المغلوط للآخريـن عنهـا ، وإذا تأملنـا علاقـة العـرب بـالغرب تاريخيا فسوف نجد أنها قد عبرت منعطفات مختلفة عبر أزمان متعاقبة ، اتصـف بعضها بالتواصل المشترك، والتعـايش المتميز ، والتبـادل الفكـرى المتـألق ، بينمـا اتصف بعضها الآخر بدرجات من الفتور والانكمـاش ، بـل الانـزواء الـذى ينطـوى على الشك الخفى ، والارتياب المتبادل. وكانت القضية دائمـا فـى كـل حضـارة ، ليست هى كيف يرى البعض ذاته ، ولكـن كيـف يـراه غـيره ، لأن فكـرة البنـاء الحضارى ، لا تقف عند قبول أصحابها بها ، وحين ظهرت ـ فى عصور الازدهار الفكرى العربى، والامتداد الثقافى الإسلامى ـ قنوات معرفة للوصل الحضـارى مـع الغرب المسيحى ، لعب الوجود العربى فى أسبانيا قبل سقوطها فيما سمـى بدولـة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأندلس ، والمعابر الثقافية فى البحر المتوسط ومن أهمها جزيرة صقلية، إلى جانب حروب العرب والفرنجة حول الأماكن المقدسة فى فلسطين ، وهى المسماة فى ظل خطأ تاريخى شائع باسم الحروب الصليبية ، أقول لعبت هذه القنوات كلها همزات وصل رائعة بين الحضارتين فى السلم والحرب معا ، ووضعت العرب والمسلمين بصورة متميزة أمام الحضارة الغربية المسيحية ، وعزز من مكانتهم فيها رصيد هائل من العلوم والمعارف زخرت بهما المكتبة العربية فى ذلك الوقت نتيجة الإنجاز المتراكم للفلاسفة والموسوعيين العرب فى عصور ازدهار الدولة الإسلامية، وهو ما أدى إلى حركة نشطة فى الترجمة من العربية إلى لغات أوروبا فى ذلك الحين بحيث مثلت إسهاما معترفا به فى تكوين البناء الفكرى ، والنسيج الثقافى للحضارة الغربية ، صاحبة السيطرة على عالم اليوم.

وخلاصة ما أريد أن اصل إليه من هذه النقطة هى أن الدورات الحضارية للأمم ليست انتعاشا دائما ، كما أنها ليست انكماشا مستمرا .. لكنها هى دورات من الصعود والهبوط ، تتقدم فيها حضارة لكى تقود ، وتتوارى أخرى دون أن تسود . فالشخصية الحضارية هى التعبير المعاصر عن المفهوم الشامل للثقافة ، وهنا نستطيع أن نميز بين المظهر الكائن والجوهر الكامن فى التكوين الحضارى للأمم .. وتدفعنى هنا روح هذه الدراسة إلى اختيار تحكمى لثلاثة من نماذج القضايا المحورية ، التى أسهمت فى تشكيل مساحة الاختلاف بين الحضارة العربية والحضارة الغربية .. خصوصا وأن هذه القضايا الثلاث تمثل نموذجا للمطاعن الرئيسية التى توجه بها جمهرة من المستشرقين نحو البناء الحضارى والتراث الفكرى للعرب والمسلمين ، ونوجز منها ما يلى :

القضية الأولى

فلسفة الحرية بين الحضارتين :

وجه الغرب تاريخيا انتقادات قوية لمفهوم الحرية فى الفكر العربى الإسلامى، ورأى فيه نقطة ضعف كبيرة تسللت منها حملات امتدت لقرون طويلة ، تربط بين الحضارة العربية الإسلامية فى جانب ، وبين القهر والعبودية ، واللجوء إلى العنف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والقوة ، وإعمال السيف كـأداة لحسم القضايا وتسوية الخلافات على الجانب الآخر، واقتصر لديهم مفهوم الحرية فى الإسلام على اعتبارها نقيضا لمعنى الرق والعبودية ، ولكنه لا يتجاوز ذلك إلى المضامين الفلسفية المعاصرة لجوهر قضية الحرية ، فبدت الشورى فى نظرهم مجرد تظاهرة قبلية ، بدءا من اجتماع "السقيفة" الشهير حتى نهاية الدولة الإسلامية ، وأصبحت كل دلالات الخطاب التاريخى للدولة الإسلامية ، حول قضية الحرية ، محكومة فى ذهن الغرب ، بمجرد فكرة تحرير العبيد بحيث لا تتجاوز ذلك إلى حق التفكير ، أو حرية التعبير ، ورأى كثير من المفكرين الغربيين والمستشرقين أن الحرية فى الفكر العربى لم تتمكن من اجتياز مضمونها الفلسفى إلى شكلها المؤسسى ، وبذلك بدت تعبيرات كثيرة مثل الديمقراطية ، والمشاركة السياسية، والتعددية الحزبية ، وكأنها كلها معطيات للنظام السياسى الغربى ، لا وجود لها فى قاموس الحياة السياسية فى ظل الحضارة العربية الإسلامية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد .. بل إن العرب والمسلمين قد بادلوا مفهوم الحرية عند الغرب ، نظرة لا تقل خطأ عن نظرة الغربيين لمفهومهم لها ، فالحرية لدى الغرب بدت أحيانا فى تقاليد الفكر العربى الإسلامى ، وكأنها تعبير عن الإباحية الاجتماعية ، والتجاوز الأخلاقى ، ورفع الضوابط من السلوك الإنسانى ، وتحطيم الأطر المتعارف عليها للأخلاق ، وهى نظرة مغلوطة لا تقل فى انحرافها عن تلك النظرة التى توجه بها الغربيون تجاه مفهوم الحرية لدى العرب ... وهكذا يبدو لنا أن قضية الحرية قد مثلت جوهرا خلافيا متبادلا بين االحضارة العربية والحضارة الغربية.

القضية الثانية

مفهوم حقوق الإنسان بين الحضارتين :

ربطت الحضارة الغربية ربطا متعمدا ، بين الحضارة العربية وغياب حقوق الإنسان، واعتبرت إهدارها بمثابة صفة لصيقة تلحق بالأزمنة المتعاقبة للدولة العربية الإسلامية ، وعلى الرغم من دفاع العرب والمسلمين بشكل مستميت عن المفهوم النظرى الذى يقدمه الإسلام بوجه خاص لقضية حقوق الإنسان .. إلا أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغرب رأى دائما أن تلك الحقوق مسألة نسبية ، ليست لها الأولوية فى التقاليد العربية الإسلامية ، وتبادل الطرفان تاريخيا حملات الشكوك والاتهام حول هذه المسألة الجوهرية .. ونسى الطرفان فى غمار التراشق المستمر ، والانتقاد الدائم ، أن حقوق الإنسان قضية لا تتصل بالقانون الوضعى وحده ، ولكنها تسبق ذلك بانطلاقها من القانون الطبيعى ، على أساس أن كفالة حق الحياة ، ومجموعة الحريات العامة المرتبطة بها ، تمثلان فى مجملهما جوهر فلسفة الحقوق الإنسانية بشكل يسبق إعلان المواثيق ، أو صدور الدساتير . ولا يخفى علينا أن مسأل حقوق الإنسان تمثل قضية كثر تداولها ، وأسىء استخدامها ، بحيث خضعت لفكرة المعيار المزدوج ، ومفهوم الكيل بمكيالين .. لأنها قضية نسبية تتصل بالدرجة الأولى بالتقاليد التاريخية والميراث الثقافى ، ودرجة نضوج الرأى العام، وتنامى عناصر وجود المجتمع المدنى المعاصر .

القضية الثالثة

مكانة المرأة بين الحضارتين :

ليس من شك أن الغرب قد اتخذ ـ بحق أو غير حق ـ من مكانة المرأة فى الحضارة العربية الإسلامية ، واحدا من أبرز المطاعن التى يحاول بها الإقلال من قيمة تلك الحضارة أو النيل من تراثها ، فهو يردد دائما إشارات متكررة حول عدد من المسائل التى يلتقطها بشكل متعمد ، ودون دراسة متأنية ، مثل تعدد الزوجات لدى المسلمين، والانتقاص من دور المرأة فى الميراث والشهادة أمام القضاء ، لكى يستخلص استنتاجا انطبع فى ذاكرة الغرب عبر القرون مؤداه أن المرأة نصف رجل فى الحضارة العربية الإسلامية، بل وقد تصل إلى ربع رجل فى حالة الاستخدام الكامل لرخصة تعدد الزوجات . وهى فى مجملها نظرة ظالمة ، لأنها لا تبحث فى خلفية المسائل ، وتكتفى بالانتقاء التحكمى لعناصر الإثارة فيها .. فهى لا تتحدث مثلا عن الذمة المالية المستقلة للزوجة وحقها فى الاحتفاظ باسم عائلتها الأصلية بعد الزواج ، وهى أمور غير مكفولة فى القوانين الغربية حتى الآن ، بل إنها لا تتناول القضيتين الأساسيتين اللتين يمكن الاعتماد عليهما لقياس مكانة المرأة فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أى مجتمع، وأعنى بهما قضيتى التعليم والعمل ، فهما يمثلان المعيارين اللذين يجب الاحتكام إليهما عند تقييم مكانة المرأة فى مجتمع بعينه ، بينما تبقى أمور أخرى ـ بغض النظر عن موقفنا منها ـ مثل الحجاب ، وطبيعة الزى ، ونمط التقاليد ، وغيرها من المسائل التى تمثل عنصر المواجهة حاليا بين الأقليات المسلمة والمجتمعات الغربية التى تعيش فيها ، تبقى بمثابة مسائل هامشية لا تمثل عناصر بارزة فى التقييم، مثل ما هو الأمر بالنسبة لمعيارى " التعليم والعمل " ، ولا أعتقد أن الحضارة العربية الإسلامية قد اتخذت موقفا معاديا حيالهما بالنسبة للمرأة ، مع ضرورة التفرقة هنا بين موقف الحضارة العربية الإسلامية وبين سلوك العرب والمسلمين أنفسهم تجاه نفس هذه القضايا، فالعبرة بالوعاء النظرى والإطار الفكرى وليست أبدا بانحرافات التطبيق أو أخطاء الواقع .

هذه نماذج اختيارية لقضايا ثلاث ، رأينا أن نتأمل من خلالها محاور الخلاف بين الحضارتين العربية والغربية ... ولا شك أن كتابات المستشرقين، وأفكار المحللين من الجانبين حافلة بمئات الانتقادات وعشرات الاتهامات المتبادلة حول هذه القضايا وغيرها من رموز الوجود الفكرى والثقافى للحضارتين معا ، ولا تكفى هذه الإشارات السريعة إلى إبراز محنة الشك التاريخية التى سيطرت على روح العلاقة بين الحضارتين العربية والغربية ، خصوصا فى فترات التردى والتدهور لإحدى الحضارتين على الأقل .. بينما تحفل الصورة بنماذج إيجابية للغاية على الجانب الآخر ، يكفى أن نتأمل جهود إمام الإصلاحين الدينى والاجتماعى فى التاريخ الإسلامى الحديث ، ونعنى به الإمام المستنير " محمد عبده " ، وكيف رأى أن التعارض لا وجود له بين الحضارتين العربية المسلمة والغربية المسيحية ، وأنه لا تستقيم الأمور بتلك النظرة المغلوطة التى تسعى لخلق فجوة بين المسلمين وروح العصر وعلومه الحديثة وأفكاره الجديدة ... وقبل ذلك سبقه أزهرى مصرى آخر يعتبر باعث حركة النهضة العلمية والتعليمية فى مصر الحديثة ، ونعنى به رفاعة رافع الطهطاوى ، والذى انعكس انبهاره الواضح بالنموذج الفرنسى فى إطار الحضارة الغربية المسيحية بشكل جعله ـ وهو فى الأساس رجل دين مسلم ـ يرى أنه لا مبرر للتناقض بين الحضارتين ، العربية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلمة والغربية المسيحية، بل إن "الجبرتى " فى تأريخه ليوميات وجود الحملة الفرنسية فى مصر كتب فى أجزاء منها ما يعبر عن روح الإعجاب بنماذج من هؤلاء الغزاة الأجانب ، وتقديره لزوايا عديدة فى حياتهم ، خصوصا ما اتصل منها بمفهوم الحرية ، وفلسفة النظام العام ، واحترام الثقافة ، والاهتمام بالبحث العلمى ... كما أن الخديو إسماعيل ـ حفيد محمد على مؤسس الأسرة العلوية ـ حين انفتح على الغرب ، وحاول أن يجعل مصر قطعة من أوروبا ، قام بذلك فى ظل مناخ فكرى عام وروح ثقافية سائدة ، كانت ترحب بهذا بالاتجاه ، وترى أن بناء الدولة الحديثة فى مصر ـ العربية المسلمة ـ لن يقف إلا على ركائز الحضارة الغربية مع منتصف القرن التاسع عشر ، وما زالت توجهات أحمد لطفى السيد حين ترجم روائع الفلاسفة اليونان ، وطه حسين فى (مستقبل الثقافة فى مصر) ،نماذج لمحاولات كبار المثقفين المصريين فى الثلث الأول من هذا القرن ، للربط بين بلد عربى مسلم والحضارة الغربية عبر البحر المتوسط برغم خلفية تعليمهم الدينى وانتمائهم الإسلامى .

ولم يقف الأمر عند حدود الاحترام ، أو حتى الانبهار من الجانب العربى بالحياة الغربية ، بل إن الأمر على الجانب الآخر يقدم نماذج مماثلة ، ويكفى هنا أن نتذكر أسماء لعشرات من الرحالة أو المستشرقين ، ولعل من أحدثها وأكثرها إثارة نموذج " لورانس العرب " رجل الاستخبارات البريطانية الذى عاش حياة القبيلة فى الجزيرة العربية ، وانخرط فى إطار المجموعة الضيقة المحيطة بالشريف حسين وأبنائه ، خصوصا الملك فيصل الأول ، والذى انعكست روح إعجابه الشديد بالتقاليد العربية ، والتراث الثقافى المرتبط بها، فى كتاباته وآرائه وأفكاره .. ولماذا نذهب بعيدا ولدينا نماذج متعاقبة للجاليات الأجنبية المتبادلة من الجانبين ؟ وهى تلك التى عاشت أو تعايشت عبر القرون بدرجة دفعتها إلى الاستقرار ، وأعطتها فى النهاية درجة من الاندماج ، وصل بها إلى مستوى المواطنة .

لقد أردت من كل ذلك أن أقول إن عناصر الخلاف بين الحضارة العربية والحضارة الغربية ، هى فى معظمها عناصر مصطنعة ، والأصل فى فلسفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحضارة أنها تواصل إنسانى بالدرجة الأولى لا يعرف بطبيعته الصدام أو الصراع أو المواجهة ... ولكنه أقرب إلى روح التنافس والتكامل والانسجام .

ونخلص من ذلك إلى القول بأن مفهوم العلاقة بالغير محكوم دائما بالنظرة المتبادلة بيننا وبينه ، وأنه لا يجب تحكيم النظرة الأحادية فى فهمنا لأنفسنا، أو فهمنا لغيرنا، بل لابد من احترام تعددية الرؤية تجاه أنفسنا ، وتجاه الغير ،لأن العالم لم يخلق لنا وحدنا ، أو لهم وحدهم ، إنما الجميع فى قارب واحد . تتقاذفه أمواج العصر ، وتعصف به أنواء التحديات المحيطة بالجميع .

إن علينا أن نؤمن ـ فى الجانبين معا ـ بمبدأ القبول المتبادل لفكر الآخرين، واحترام المكون الثقافى لديهم ، ولا يجب أخذ معيار التفاوت الثقافى والحضارى، من منظورى التقدم والتخلف ، بل يجب أخذه من مفهومى التنوع والتباين ، فليس منا من تفضل حضارته حضارة الآخر ، ولكن بيننا من الاختلاف ما يعطى سمة التمايز والتعدد، وكلها مظاهر موروثة فى التراث الإنسانى كله .. إننى أقول وفى كلمات بسيطة، إن الحديث عن عالم اليوم ، وكأن عقله فى أوروبا ، وعضلاته فى أمريكا ، وأقدامه فى آسيا وأفريقيا ، هو أمر غير مقبول ، لأننا جميعا شركاء نسيج حضارى واحد ، فلقد أسهمت الفلسفات الآسيوية ، والحضارات الأفريقية بدور فاعل فى التاريخ الإنسانى يرتفع بها من مستوى القدم إلى قمة العقل، وأضيف إلى ذلك أننا نطالب أبناء الحضارة الغربية بفهم مختلف من جانبهم لتراثنا وثقافتنا ، فى ظل مفهوم التنوع ، وليس التميز، فالفوارق بيننا نوعية وليست أبدا مرحلية تتصل بمفهوم التقدم أو التخلف ، كما ندعوهم أيضا إلى محاولة فهم عميق لفلسفة الحضارة العربية الإسلامية ـ بما لها ، وما عليها ـــ من خلال منظور إنسانى متفتح ، يسقط من حسابه الحساسيات التاريخية، أوالنظرات المتعصبة .. كما أننا نقول فى حديث خافت الصوت نوجهه إلى أنفسنا كأبناء للحضارة العربية،مجمله أننا محتاجون ـ على الجانب الآخر ـــ لقدر كبير من الإحساس بالتعايش مع الغير ، فى ظل التعددية الثقافية والفكرية فى عالم جديد، وأن علينا أن نقبل أطروحات العصر ، وأن ندرك أن المشاركة هى فلسفة الحياة ، وأن الصدام الحضارى نوع من الانتحار لا يمضى مع طبيعة الأشياء ، أو فلسفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التطور ، ثم نقول معا فى النهاية ، سواء كنا ننتمى إلى حضارة العـرب أو حضـارة الغرب ، إننا يجب أن نعى وبعمـق واضـح ، أن التواصـل الثقـافى ضـرورة ، وان حضارة العصر الذى نعيشه هى عائد شركة مساهمة بين أطراف المجتمع الإنسـانى كله ، وإنها إذا كانت ابنة الغرب حاليـا، فهـو الأب الأخـير لهـا، بينمـا سـبقته مراحـــل معقـــدة مـــن نسـيج متشـابك لحضـارات أخـرى ، مهـدت لـدوره ، وسمحت بأبوته .

هذه بعض خواطرى ، أطرحها لكى أثبت أن مسـتقبل العلاقـة بـين الحضـارة العربية والحضارة الغربية يجب أن يقوم علـى الفهـم الصحيـح لـدروس التـاريخ ، والاحترام المتبادل لمعطيات التراث ، والإستاط الواعـى لأسـباب التعصـب ومظـاهر الشك وروح الكراهية ، لأننا شركاء مسيرة واحدة عـبر تـاريخ إنسـانى طويـل ، لا يعرف فى جوهره الفوارق بين البشر ، بسبب لون او جنس أو عقيدة .. فكلنا أبناء محنة الوجود الواحد ، والمستقبل المشترك الذى نريـد أن يسـعد فيـه الجميـع ... حتى الذين يختلفون عنا فـى الـرأى ، ولا يتفقـون معنـا فـى الرؤيـة ، وأردد هنـا مقولتين : الأولى من الفكر الغربـى ، وهـى مقولـة فولتـير الشـــهيرة "إننـى علـى استعداد لأن أدفع حياتى ثمنا لدفاع غيرى عن رأيه "، والمقولة الثانيـة فـى الفكـر العربى ، وهى مأثورة الإمـام أبـى حنيفـة الـذى يقـول "إن رأيـى صـواب يحتمـل الخطـأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب".

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العلاقات الثقافية الدولية المعاصرة
"رؤيـــة جـديدة "

يتعين علينا بدايـة أن نطـرح مفهومنـا لمعنـى "الثقافـة" ، وهـو مفهـوم واسـع يحتوى الجوانب المختلفة لهذه الكلمة الضخمة فى تاريخ الإنسان ..

فالبعض يراها نسقا حضاريا متجانسا يرتبط بجماعة بشرية معينـة ، والبعـض الآخر يراها محصلة التراث الاجتماعى لأمة بذاتها ، بينما ينظر إليها بعض ثـالث على أنها رصيد جماعى من القيم والتقاليد تشكل أسلوب حياة لشعوب محددة ..

والأمر ـ فى ظنى ـ أن الثقافة وعاء إنسانى يحتوى المعانى المتقدمـة كلهـا فـى وقت واحد ، فهى مرادف للحضارة ، وهى مرادف للـتراث ، وهـى مـرادف لقيـم البشر وأسلوب حياتهم ..

ولقد سيطر مفهوم ذاتية الثقافة على الفكر المعـاصر للأمـم والشـعوب بـدءا مـن المجتمعات البدائية وصـولا إلى المجتمعـات المتحضـرة مـرورا بمجتمعـات التحـول والانتقال .. حيث استقرت لكل جماعة بشـرية خصـائص مميـزة تشـكل إنتماءهـا القومى وهويتها الخاصة وشخصيتها المستقلة .

ولقد ظل هذا المفهوم التاريخى للثقافة لصيقا بها إلى عقود قريبة مضت، حتـى بدأ يتحول بشكل واضح فى السنوات الأخيرة نتيجة القفزات الباهرة التى حققتهـا الإنسانية وتفوقت بها خـلال فـترة قصـيرة علـى إنجازاتهـا الهائلـة خـلال قـرون سابقة.. ولقد كان تطور مدلول الثقافة مرتبطا ـ فى رأينا ـ بالعوامل التالية :

أولا : إن الثورة العلمية والتطور السريع فى وسائل الاتصال ، وأدوات النشر، والقفزات اليومية فى تقنيات العصر ، قد أحدثت بدورها ثورة كـبرى فـى مضمـون التواصل الحضارى بين الأمم ، وأقامت جسـورا قويـة بـين الثقافـات .. يكفـى أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصـــرى يشـــاهـــد عـبر الأقمـــار الصناعيـــة نفس مـا يشـاهده الأمريكـى أو الفرنسى أو اليابانى فى ذات الوقت . لقد أصبحنا أمام ثقافـة تكـاد تكـون واحـدة لشعوب متعددة.

ثانيا : لقد أدى تزايد دور" ديموقراطية العلاقات الدولية المعاصرة " ـ إن جاز التعبيرـ إلى درجة كبيرة من الاهتمام بثقافات الـدول الصغـيرة والشـعوب الناميـة ، بل إنه من حسن الحظ أن تلك الدول رغم فقرها فى كثير مـن جوانـب حياتهـا إلا أنها ليست فقيرة التراث ، بل على العكـس يملـك معظمهـا تاريخـا ثقافيـا طويـلا سواء كانت مصـادره نهريـة CULT OF RIVER أو صحراويـة CULT OF DESERT وبذلـك توفـرت مقومـات التكـامل الثقـافى علـى المسـتوى الـدولى بـين أمـم تملـك التكنولوجيا المتقدمة مع فقر التراث القومى ، وأخرى تملك التراث الطويل مع فقـر التكنولوجيا ، وكان لابد أن يـؤدى ذلـك إلى ظهـور قنـوات جديـدة بـين الشـعوب تجعل من الإعلامين المسموع والمرئـى ومـن السـياحتين الفرديـة والجماعيـة أدوات للاتصال الثقافى والتواصل الحضارى.

ثالثا : يجب أن نعترف ـ ولو فى مرارة ـ أن عالم اليوم يحمل عدوانا متزايدا على الهوية الذاتية والشخصية القومية لثقافات كثيرة نتيجة التأثير القوى لما يمكن تسميته بالثقافة الجاذبة على حساب الثقافات الطـاردة ، فـالتقدم التكنولوجـى ، ورقى أنماط المعيشة فى مناطق معينة من عالم اليوم ، يجذبـان إلى ثقافاتهـا أجيـالا جديدة لا تقدم لها ثقافاتها المحليـة مصدر إغـراء أو عنصـر جـذب فـى مواجهـة تيارات أخرى أقوى اقتصاديا واجتماعيا تنتمى لدول أعلى صوتا وأشد تأثـيرا علـى خريطة العصر .

رابعـا : إننـا نضـع الصـورة فـى إطارهـا الحقيقـى لكـــى نقـــول إن الثقافـــة الأنجلوسكسونية فى ثوبها الأمريكى هى صاحبة الكلمة العليا فى العقود الأخيرة ، فقد تربت أجيال كاملة فى قارات الدنيا المختلفة على الإعجـاب بثقافـة الوجبـات السريعةFAST FOOD ولباس " الجينز " وشراب " الكوكاكولا " وغيرها مـن مظـاهر الحياة الامريكية الحديثة، كما تصورها أدوات الإعـلام الأمريكـي الكاسـح ، وكمـا يشاهدها مئات الملايين على الشاشات الكبيرة والصغيرة بدءا من أفـلام رعـاة البقـر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى المحطات التليفزيونية المؤثرة، لعل من أهمها محطة CNN وإن لم تكن آخرها ، بل إننا نسمع حديثا متكررا فى السنوات الأخيرة عن"تأمرك" الحياة الأوروبية ذاتها وليس القارات النامية وحدها .

خامسا : لقد لعبت سيادة اللغة الإنجليزية مع تصاعد الدور الأمريكى بعد الحرب العالمية الثانية دورا مؤثرا فى تكثيف الولاء الثقافى للولايات المتحدة الأمريكية ، ثم جاء عصر " الكمبيوتر " ليضيف بعدا جديدا عبر آفاق لم تكن معهودة من قبل ، وهو ما جعل اللغة الإنجليزية تتصدر بغير منافس باعتبارها اللغة الأولى للتقدم العلمى والتفوق التكنولوجى ، ولعلنا نذكر حديث الرئيس الفرنسى " جاك شيراك " فى مؤتمر الدول "الفرانكفونية"الذى انعقد فى دولة "بنين" الإفريقية عام ١٩٩٥ ، وكيف كان تركيزه شديدا على محنة اللغة الفرنسية وضرورة التنبه إلى تأكيد دورها فى عالم اليوم ، فى ظل الحماس الفرنسى المعروف للعامل الثقافى على الصعيدين الدولى والإقليمى ، فالثقافة الفرنسية لدى أصحابها هى سياسة واقتصاد واجتماع وليست فقط فلسفة وأدبا وفنا،إنها اسلوب حياة ونمط تفكير يبلغان أحيانا درجة من الاستغراق والمبالغة .

سادسا :لعلنا نلاحظ أن بعض الثقافات الآسيوية ، قد حاولت الحفاظ بضراوة وإصرار شديدين على هويتها القومية وشخصيتها الحضارية ، ونجح بعضها إلى حد كبير، فالزى الهندى والطعام الصينى والتحفظ اليابانى كانت كلها مظاهر التكوين الثقافى لتلك الأمم، ولكن يبدو أن الأمر لم يعد بنفس درجة الصمود ومستوى التماسك، فلقد وصلت آثار الغزو الثقافى الغربى عموما والأمريكى خصوصا إلى الأجيال الجديدة فى تلك الدول ، ولقد قرأت أخيرا بحثا فى علم اللغة يدور حول شيوع الكلمات الإنجليزية والتعبيرات الأمريكية تحديدا فى مفردات ومرادفات اللغة اليابانية ، بشكل غير مسبوق ، يعكس التأثير المتزايد لحضارة العصر السائدة وثقافته المؤثرة .

فإذا كانت تلك هى بعض العوامل التى تطور بها المفهوم المعاصر للثقافة ، والمظاهر التى تدل على ذلك التطور ، فإنه يتبقى أمامنا أن نتحدث عن بعض المؤشرات التى تحدد أهمية الدور الثقافى فى عالم اليوم ونوجز منها :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ـ إن الانفتاح هو سمة العصر كما أن الانغلاق هو قرين التخلف ودليل العزلة ، وهى أمور لا تتسق مع روح هذا الزمان ولا تتوافق مع إيقاعه ، وقد أدى الانفتاح الثقافى ـ بأسبابه المعروفة ـ إلى تمازج إنسانى شامل تداخلت معه الثقافات وتجاورت فيه اللغات مع الاعتراف الكامل بأن أحجام التأثير تتفاوت وفقا لأوزان الأمم ومكانة الشعوب فى السوق السياسية القائمة .

٢ ـ إن الثقافة المتعددة هى ـ يقينا ـ أفضل من الثقافة الأحادية . فالمفكر الإسلامى الذى يقرأ بلغة أخرى إلى جانب العربية ، هو بالضرورة أعمق إدراكا وأكثر إلماما وأوسع معرفة من آخر لا تتيح له ظروفه الإطلاع على ثقافة الغير وفكر من قد يختلفون معه فى الرؤية ، وهو نفس السبب الذى جعل المستشرقين أكثر من ذويهم فهما لحضاراتنا وثقافاتنا ومعتقداتنا مهما اختلفت آراؤهم أو تباينت دوافعهم .

٣ ـ يبقى دور اللغات وأهميته المعاصرة ، فهى جسور الاتصال ومعابر الثقافة ، وهى أداة المعرفة فى كل وقت ، ونحن أمة تعتز بالمقولة الشريفة " من تعلم لغة قوم أمن شرهم " ونقول أيضا واستفاد من علمهم .. فأطروحات العصر تجعل العلم بلا وطن وإن كان للعلماء أوطانهم ، والمعرفة بلا قومية وإن كانت للمفكرين قومياتهم . وهى التى تجعل من التقدم العلمى حقا للجميع فى مستقبل توحى كل إرهاصاته بتزايد دور الديموقراطية والتعددية السياسية ، وسيادة حقوق الإنسان ، والاهتمام بالتراث البشرى المشترك .

٤ ـ إننا إذا كنا نسلم بأن الحضارة الغربية المسيحية تملك نوعا من التفوق فى القرنين الأخيرين ، فإننا نعتبرها فى الوقت ذاته وريثة حضارات سبقتها ، وثقافات أثرت فيها ، ولعب الشرق دورا حيويا فى تقديمها ، فلقد كان لمصر القديمة فضل على حضارتى الرومان واليونان ، وكانت الأخيرتان جسر عبور إلى أوروبا عصر النهضة التى كان إسهام الحضارة العربية الإسلامية واضحا فيها أيضا على الجانب الآخر .

□

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبقى التساؤل مطروحا حـول موقـع العلاقـات الثقافيـة الدوليـة مـن خريطـة العصر .. والإجابة على هذا التساؤل تبدو يسيرة بعد تأمل العوامل و المؤشرات التى سقناها من قبل.. فنحن فى مواجهة عالم يتجـه إلى الامـتزاج والتداخـل . ويسـعى نحو التعاون والتواصل .. برغم أصوات تتحدث بغير منطق عـن صـراع الحضـارات مثل تلك النظرية التى طلع علينا بها "صمويل هنتنجتون" . أو المواجهة التاريخيـة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية التى يروج لها دائمـا " برنـارد لويـس " إننا على يقين من أن الثقافة وهـى وعـاء حضـارى بالدرجـة الأولى يحتـوى أبعـادا بشـرية عميقـة ، ورؤيـة إنسـانية شـاملة ، ويتجـه نـحو آفـاق العطـاء والتواصـل والتكامل . فالثقافة الراقية لا تعرف نزعة التعصب، ولا تتفق مع روح الكراهيـة ، ولا تزدهر فى منـــاخ العزلـة .. إنهـا تحتـاج دومـا إلى أجـواء الحريـة والتسـامح والتفاهم المشترك وتسـعى إلى السـلام والتنميـة ، وتوظيـف تـراث المـاضى لـخدمة ازدهار المستقبل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

"المثقف والدولة : الرؤية والسلطة"

إن علاقة المثقف بالدولة عموما هى مرادف مباشر لعلاقة الثقافة بالسلطة والجماهير فى وقت واحد، فلا يجب أبدا تثبيت النظرة تجاه المثقف لكى تبقى حكما مسلطا على رقبته بحساب حساس يأخذه بنفس المعايير التى يؤخذ بها السياسى لأن المثقف هو جزء من البناء الحضارى يتأثر أسرع من غيره سواء كان أديبا أو شاعرا أو مفكرا.

فالمثقف يعبر عن افكار يحملها على كاهله أو نزوع عقلى يسعى وراءه لذلك فإننى أطالب بالترفق فى الحكم على تاريخنا الثقافى ورموزه الكبيرة ، فلو أخذنا "عباس العقاد" على سبيل المثال نجد أن العقاد السياسى يختلف عن العقاد المفكر، وحتى عن العقاد السياسى فمواقفه على أية حال تتسم بالنزاهة ووضوح الرؤية والالتزام بحركة الجماهير والانصياع لتيار الأغلبية ، فلقد كتب مثلا عن الوفد بغض النظر عن مواقفه الشخصية من بعض قياداته فى مراحل معينة ، ولا يمكن تطبيق نفس هذا المعيار على العقاد المفكر المثقف الذى ارتبط بنسق حضارى معين عبر عنه فى العبقريات وغيرها .

ولابد هنا أن أتناول عددا من القضايا تتصل بتاريخنا الثقافى :

القضية الأولى الولاء المزدوج :

إن حسم قضية الولاء المزدوج للمثقف تجاه الجماهير والسلطة لا يجب أبدا أن يكون على حسابه ، وسوف نجد فيما بعد أن معايير كثيرة قد ظلمت المثقف المصرى قياسا على ظروف وأوضاع نذكر منها على سبيل المثال ما حدث بعد ثورة ٢٣ يوليو حين ثارت قضية أهل الثقة وأهل الخبرة فى ذلك الوقت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القضية الثانية ـ الانتماء الطبقى للمثقف :

لايمكن أن نحاسب " عبدا لله النديم" المثقف المصرى بنفس المعايير التى نقيم بها " أحمد شوقى"، فالارتباط الطبقى قد أثر ويؤثر منذ سنوات النشأة على طبيعة المثقف ودوره ، وقد ظهرت ما سميت " بطبقة الأفندية " ـ إذا صح التعبير ـ كتعبير عن صعود الطبقة المتوسطة نتيجة التعليم وحيازة قدر معين من الثقافة لكى تصبح فى النهاية تعبيرا اجتماعيا معينا ..

يا ترى هل هذا التعبير يظل ملازما للمثقف بحيث يحسب له ، أم إن الأمر يختلف بحيث يمكن أن تكون سنوات النشأة أو طبيعة المنطلق الطبقى فى صالح المثقف وليست عليه ؟ ، فاستقراء تاريخ مصر الحديثة يؤكد أن الصعود الطبقى للمثقفين المصريين أبناء القرية بالذات لم يكن بالضرورة نتيجة انفصال عن جذورهم بمعنى أن المثقف القروى لا يبدو حتى فى نهاية عمره بعيدا عن طبيعة القرية والفلاح أو الكُتّاب أو الأصول الدينية والطبقية مثل تلك التى انطلق منها طه حسين مثلا .

أريد أن أقول إن قضية الطبقة تظل تلازم المفكر من حيث أنتمائه الاجتماعى، فمفكرو القرية الذين ارتبطت نشأتهم بها ظلوا حتى النهاية ملتصقين بواقعها ، وليس معنى ذلك أن طه حسين ـ على سبيل المثال ـ لم يستوعب حياة باريس أو لم يدرك خصائص المدنية الحديثة ، ومثال آخر فقد كان أحمد لطفى السيد من أصحاب اتجاه التغريب فى الثقافة المصرية المعاصرة ، ومع ذلك ظل محسوبا على العنصر الوطنى فى السياسة والثقافة المصرية ، ولذلك لا يصل الشطط بالبعض إلى ظلم المثقفين المصريين بمسألة الانحياز الطبقى نتيجة الصعود الاجتماعى فى عصور معينة .

القضية الثالثة ـ دور المثقف فى الحياةالسياسية :

إننا لو حاسبنا المثقف بمعيار سياسى فسيختلف ذلك عن المعيارالثقافى.. فلو فرقنا بين العقاد السياسى والعقاد المفكر المثقف فسنجد نفس التفرقة تنطبق على إحسان عبدالقدوس أيضا ، ففى تصورى أن إحسان عبد القدوس السياسى قد يكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أفضل من إحسان عبدالقدوس الروائى، فقد كانت له مواقف تاريخية تدعونا إلى إبراز قيمته السياسية التى تبدو فى نظرى أكثر بريقا من حياته الأدبية .

ولو أخذنا نموذجا بارزا لعلاقة المثقف بالسياسة وهو الذى يتمثل فى علاقة المثقفين المصريين بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لوجدنا أن ذلك اختبار حقيقى لمسار القضية الثقافية فى الحياة المصرية .

وفى ظنى أن الثورة بكل ما لها وما عليها لم تكن متحمسة للحركة الديموقراطية عموما ، وقد حدثت تحولات إلى الأفضل وأخرى إلى الأسوأ ، لكن الحركة الثقافية فى مصر دفعت ثمنا باهظا لذلك نتيجة غياب تذوق حقيقى من جانب الثوار للحركة الثقافية ، ولقد ظهر ذلك فى علاقتهم بالقصور الملكية والتماثيل التاريخية وغيرها من المظاهر الثقافية لفترة أسرة محمد على حيث تعاملت الثورة معها من منطلق سياسى وليس من خلال نظرة ثقافية ، وذلك يمثل نوعا من الإهدار الثقافى اللاواعى فى مسيرتنا الحديثة ، ولا أستطيع أن أخصمه كله من رصيدالثوار ، فقد كان لديهم أولويات معينة ، لكن يبقى من أبرز أخطاء ٢٣ يوليو أنها لم تستوعب مسار الحركة الثقافية وتأثيرها على التطور الاجتماعى على نحو كان يمكن أن يؤدى إلى امتداد ثقافى مستمر لا يتوقف لأسباب سياسية.

لقد اتخذ المثقفون المصريون من ثورة ٢٣ يوليو موقفا مؤيدا ، بل حاولت أقلام كثيرة أن تكتب بشكل تطويعى لتبرير أفكار وممارسات الثورة الاجتماعية والثقافية فى مواجهة تيار سابق على قيام تلك الثورة . ولعلنا نذكر ــ على سبيل المثال ــ قصة " الأرض " لعبدالرحمن الشرقاوى باعتبارها رواية محورية تعبر عن الأدب المصرى فى تلك الفترة وتمثل تحولا فى شخصية المثقف المصرى وتعكس بشكل محدد تجاوبه مع التيار الجديد فى الحياتين السياسية والاقتصادية .

وقد يقول قائل .. إن المثقفين المصريين هم أيضا الذين زينوا لثوار ٢٣ يوليو معظم تجاوزاتها وبرروا كل أخطائها .. وتبادلوا الأدوار بحكم الطموحات الشخصية والتنافس للفوز برضاء قادة الثورة عل نحو أخل بكثير من القيم الثقافية وعكس مرحلة جديدة من مراحل علاقة المثقف بالسلطة فى تاريخ مصر الحديثة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعلنا لا نزال نذكر أزمة المثقفين بمعناها الواسع فـى التمييـز بـين أهـل الثقـة وأهل الخبرة فى مرحلة معينة تمثل جانبا هاما من علاقة المثقفين بالثورة فـى ظـل التحولات الاجتماعية والاقتصاديـة والسياسـية بمـا انعكـس علـى دور المثقـف فـى المجتمع ونظرته تـجاه الحـكم .

إننى أطالب بألا تكون هناك قسوة عنـد تقييـم دور المثقـف المصـرى فـى تلـك الفترة لأنه كان فى مواجهة قوة جديدة تتحدث عن الشرعية الثورية بديلا للشرعية الدستورية مع تعطيـل كثـير مـن المسـارات الطبيعيـة للقـانون وتطبيقـه إلى جـانب مبررات تتصل بأسباب خاصة أهمها أسلوب التحول فى المجتمع ، وهذا لا يمثـل حكما تقييميا على ثورة ٢٣ يوليو، إنـما هى قراءة للأحـداث التى عايشـها المثقف المصرى بعد قيام الثورة . فالذى حدث أنه كـانت هنـاك قضايـا لهـا أولويـة علـى غيرها ، فكان دور المثقف المصرى مضطربا قلقا ولعنا لا نزال نذكر حركات التطهير التى اقتحمت أبواب الجامعة وعصفت بعدد من أساتذتها فى بداية الخمسينات ، وكان من بينها اسماء لامعة أذكر منهـا د . لويـس عـوض ، فتلـك الضربـة كـانت كافية لتنبيه المثقف المصرى أن عليه الاختيار، فإمـا أن يكـون مـع الثـورة وإمـا أن يبحث عن دور آخر وذلك يقودنا إلى القضية الرابعة .

القضية الرابعة ـ عزلة المثقف :

مازالت هذه القضية من أبرز الآثار السـلبية فـى العقـود الخمسـة الماضيـة فـى تاريخنا الحديث . فالمثقف حين يشعر بنـوع مـن المعانـاة الذاتيـة والاغـتراب عـن الواقع ويدرك أن قانون " الانتخاب الطبيعى" لا يمارس آثاره وأنه ليس بالقدرات الفكرية أو الثقافية أو الشخصية تقاس أقدار المثقفين وأن هنـاك معايـير أخـرى قـد تتصل بالثقة فيه او الاعتماد عليه ، فـإن مشـاعر الإغـتراب تبـدأ فـى التسـلل إلى كيانه ، ونجد فى تاريـخنا الثقافى كثيرا من المظلومـين الذيـن لم يـأخذوا حقهـم فآثروا الابتعاد عن الأضواء والانزواء بعيدا عن مجريات الأمور .

ونجيب محفوظ كان ـ إلى حد ما ـ نـموذجا لذلـك كـأديب مصـرى أو مثقـف مرموق اعتزل الحياة السياسية بتكوينه وبطبيعة شخصيته ، ولكـن الأضـواء سـعت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إليه على المستوى العالمى بالصورة التى عرفناها فى السنوات الأخيرة ، وهناك نماذج كثيرة من المثقفين الذين نعرفهم فى الجامعات وكتب عليهم الانزواء رغم قدرتهم العلمية والثقافية والفكرية الهائلة.

وأنا شخصيا أتذكر نماذج عديدة منها الراحل الأستاذ الدكتور حامد ربيع الذى كان يدرسنا فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية فى مطلع الستينيات، والذى كان ينمو أكاديميا بشكل متعاظم، ولكنه كان يتراجع فى الوقت ذاته عقائديا رافضا تحديد انتماء سياسى له رغم وزنه الأكاديمى المعروف مع عزوف دائم عن السلطة وابتعاد عن الحياة العامة.

القضية الخامسة ـ الثقافة هى وعى بحركة التاريخ :

إن المثقف المصرى يؤمن بأن الظروف يجب أن تكون مهيأة له على النحو الذى يريده ويربط بين النضال الطبقى والنضال الفكرى وتقترن لديه المعاناة بحركة الجماهير فى وقت تبدو فيه نظرية "الانتخاب الطبيعى" معطلة على النحو الذى ذكرناه من قبل فالافضل لا يصل وحده ، ولكن يصل معه كثيرون ممن لا يستحقون فضلا عن دور العلاقات العامة والاتصالات الشخصية فى فرض عناصر دخيلة على الحياة الثقافية المعاصرة .

فتعطيل نظرية " الانتخاب الطبيعى " نتيجة ظروف معينة يحرم أصحاب الحق من أن يصلو إلى المقاعد التى يستحقونها فى ظل مجتمع لا يؤمن بالتعددية ولا يعطى فرصا متكافئة للأفراد فى ظل ظروف واحدة ، بينما يعطيها للقادر على التسلق قبل غيره .

القضية السادسة ـ نظرة لتاريخ المثقف المصرى :

لقد ولد دور المثقفين المصريين فى حضن الأزهر الشريف مع ميلاد مصر الحديثة ، وهذه قضية لا تغيب عن ذهب المؤرخين ، فقد كان شائعا إلى وقت قريب أن طلب العلم يعنى طلب العلم فى الأزهر وان المثقف يعنى لدى العامة رجل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأزهر والذى اكتسب من خلال مكانته دورا حساسا ومؤثرا منذ مطلع القرن الماضى، ولذلك تثير هذه القضية بعض التأمل ونحن نرى الكثير من المثقفين قد لا يكون لديهم توجهات دينية ، إنما تجد مسحة ما من العلم الدينى فى جذور أولئك الذين نشأوا فى القرية ، ونجد أيضا عددا من السياسيين مثل سعد زغلول وغيره ممن بدءوا دراستهم فى الأزهر الشريف ، حتى مدرسة القانون فى وقتها وكذلك مدرسة القضاء الشرعى كانتا مصدرين لتخريج السياسيين فى فترة معينة ، وهى كلها فروع ازدهرت فى ظلال الأزهر الذى يعتبر بحق مدرسة فكرية وتعبيرا حضاريا إسلاميا .. فالأزهر احتوى المسلمين وغير المسلمين بمعنى أنه كان ركيزة ثقافية قبل أن يكون قلعة دينية .. فهل ياترى هذه البداية لحركة المثقفين فى مواجهة السلطة ظلت حتى الآن تعطيهم بين وقت وآخر نوعا من الاهتمام بالعلم الدينى ؟

من هنا نكتشف أن كل مفكر من مفكرى تنوير هذا القرن وبالذات المسلمون منهم قد عرج بشكل أو بآخر على الدراسات الإسلامية مثل د . محمد حسين هيكل أو د . طه حسين أو العقاد أو توفيق الحكيم فكلهم كتبوا فى السيرة وتطرقوا للقصص الدينية ، ولكن نجيب محفوظ يبدو هو الوحيد فى كل مسار حياته الذى ظل كاتبا مصريا علمانيا يؤمن بالتعددية ، فما الذى أعفى نجيب محفوظ من هذه السمة بينما ترسخت لدى غيره ؟ هل هى النشأة الأزهرية للجيل السابق والتى حرم منها الجيل اللاحق .

القضية السابعة ـ طموحات المثقفين وأثرها على تكييف دورهم فى الحياة العامة :

وهذه قضية تعرضت لها من قبل ولنتذكر مناورات بعض المثقفين حول ثوار يوليو ـ بتجربتهم الضئيلة فى الحياة العامة وفكرهم السياسى والاقتصادى ورؤيتهم الثقافية مع السنوات الأولى للثورة ـ وسنجد أن الكثير من المثقفين افتقد الأمانة الثقافية والفكرية فى توجيه الضباط الثوار على نحو أدى إلى تبوأهم فى بعض المراحل لمناصب معينة على حساب المصلحة العامة ، أنا لا اشير إلى رموز معينة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنما أريد أن اقول إن هناك أيضا حالة من حالات النكوص الأخلاقى فى ادوار بعض المثقفين فى مراحل معينة من تاريخنا .

وهنا لابد أن أشير إلى التميز فى موقف العقاد الذى قاوم الملك فى جبروته ، وبقى خارج قاعة احتفال تكريمه بحضور عبدالناصر إلا حين نودى اسمه للحصول على جائزة الدولة التقديرية ودخل وهو مرفوع القامة والذين يذكرون تلك المناسبة تصوروا يومها وكأن جمال عبدالناصر هو الذى يتسلم الجائزة من عباس العقاد الذى ألقى خطابا فى الاحتفال ليس فيه إشارة قريبة أو بعيدة يمكن ان نعتبرها مداهنة أو نفاقا ، وقد كان ذلك فى لحظة تكريمه التى كان من الممكن أن تفرض عليه أن يفعل ذلك ولو على سبيل المجاملة .

القضية الثامنة ـ معاناة المثقف المعاصر :

المثقف المعاصر هو ابن الظروف المحيطة به ، وهو نتاج البيئة التى نشأ فيها وهو غالبا ما يمثل تركيبة معقدة وحساسة تتأثر بالأنواء والأعاصير التى تمر بالمجتمع ، فعلى سبيل المثال كان محمد عبده على صلة طيبة بالخديو عباس حلمى فى مرحلة وعلى خلاف معه فى مرحلة أخرى ، فهل يجب أن نقيم عطاءه وفقا لاقترابه أو ابتعاده من الخديو ؟ أم أن عليه أن يحمل درجة من الصلابة فى العطاء معزولا عن الصعود والهبوط فى الحركة السياسية إذ يجب أن يتحدد دور المثقف وعلاقته بالسلطة فى إطار الدولة بصورة صماء لا تبتعد عن طبيعة نظرية بحتة لما يمارسه سواء كان أديبا أو شاعرا أو مفكرا أو فنانا أو حتى كاتبا سياسيا . هل يمكن أن يتحقق ذلك ؟ هل نسمح للحياد الأكاديمى أو درجة من درجات الموضوعية أن تعزل المثقف عن انتماءاته السياسية وتجعل معاناته هى معاناة فلسفية ذاتية وليست معاناة سياسية ؟ وكأننا نطالب المثقف فى هذه الحالة أن يكون معزولا فى برج عاجى ولا أتصور أن ذلك سوف يحدث ، فالمثقف هو جزء من عصره .. هو ابن ظروفه .. يعانى معاناة الجماهير المحيطة به وتنعكس حالتهم النفسية على كتاباته أو فكره ، وبالتالى فإن معاناة المثقف هى جزء من حاضره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومستقبله وأتصور ايضاأنها كانت دائما جزءا من ماضيه لم يتخلص منه فى مراحل حياته المختلفة .

هذه بعض التصورات لعلاقة المثقف بالسلطة بعضها تحدثت عنه صراحة وبعضها أشرت إليه ليس من قبيل الرمز فى الحديث ، ولكن من قبيل التفكير بصوت عال حول دور المثقف والدولة وهو دور عرف عصور ازدهار وانتعاش كما شهد عهود إحباط وانكماش .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

"أزمة الكتاب .. رؤية ثقافية"

مادام الكتاب هو وعاء الثقافة الخالد وأداتها الباقية فإنه يهمنى أن أطرح تصورى حول "هموم الكتاب العربى" ومشكلات النشر الراهنة من خلال الملاحظات الآتية :

أولا : إن الكتاب وعاء فكرى ومصدر علمى لا تنتهى قيمته عند فترة زمنية معنية ولا تتجمد عند عصر بذاته ، فطبيعته تكفل له الاستمرار والدوام عبر الأجيال وربما عبر القرون أيضا .

ثانيا : إن كتب التراث كانت هى الإطار التاريخى لمسيرة حياتنا الفكرية والثقافية والاجتماعية ، فالعرب جميعا يلتقون أمام كتب الجاحظ أو دواوين المتنبى أو مؤلفات طه حسين ، بل إن كتبا بارزة مثل عبقريات العقاد وبكائيات المنفلوطى وغيرها من عيون الأدب العربى وحتى كتاب مثل"يقظة العرب" "لفيليب حتى" واتصاله بالفكر القومى ، كانت كلها من مصادر تكوين الضمير العربى الجماعى والوجدان القومى المشترك ، ويكفى أن نتذكر الدور الذى لعبته مجلات مصرية فى حقبة معينة مثل"الهلال" و"الرسالة" و"الثقافة" و"الفكر المعاصر" فى تربية أجيال من أبناء الأمة العربية فى مختلف أقطارهم وتباين اتجاهاتهم .

ثالثا : إن الكتاب ليس فقط أداة الوصل القومى فى فترة معينة ، ولكنه أيضا لا يزال حتى الآن سيدا فى غصر المنافسة الشديدة مع وسائل الاتصال الحديثة وثورة المعلومات الهائلة .

رابعا :إذا كنا نسلم بأن الثقافة هى أخطر أسلحة العصر وأن التطبيع الحقيقى بين الدول هو التطبيع الثقافى، فإننا من هذا المنطلق نمر بمرحلة ذات خصوصية تجعل للكتاب دورا متميزا فى تجديد الفكر القومى وتحديد ملامح مستقبله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خامسا : إن أثر حركة النشر والترجمة والتأليف فى القاهرة وغيرها من العواصم العربية والتى اقترنت بازدهار الصحافة وصعود مسيرة الآداب والفنون هو أمر يترك بصماته على الفكر القومى ، ويكفى أن أشير ـ على سبيل المثال ـ إلى نموذج الكاتب البيروتى "جورجى زيدان" وإنشائه "لدار الهلال" فى القاهرة وصدور رواياته الإسلامية لكى يكون كل ذلك نموذجا للتزاوج القومى بين أقطار الأمة الواحدة ، وهو أمر جعل للعاصمة المصرية وللكتاب الذى يصدر منها دورا أساسيا فى تشكيل صيغة حاضرنا الذى نعيشه والتبشير لمستقبلنا الذى نتطلع إليه .

سادسا : إذا كانت الشعوب تتفاوت فى شغفها بالقراءة وحفاوتها بالكتاب فإن ذلك أمر ينسحب أيضا على القرنين الأخيرين فى تاريخنا العربى منذ بداية إرهاصات التنوير . فكما أن بعض الشعوب المعاصرة كانت تحتفل بوصول المطبعة كما لو كان ذلك عرسا قوميا ، فإننا من جانبنا نعتبر ذلك هو توقيت الحداثة لدى الأمم وبداية التوجه نحو عصر جديد .

سابعا : إن تزييف الكتاب ـ وهو جريمة نشر بغير جدال ـ ينهض دليلا على قومية الكتاب وحيوية الحاجة إليه، وهو تأكيد على افتقارنا على الجانب الآخر لدرجة من التنسيق فيما نكتب من كتب وما نصدر من مطبوعات وننشر من مؤلفات.

□

إن الحديث عن الثقافة وهمومها ، والمثقفين وأزمتهم لابد وأن يجد "مسألة الكتاب" فى صدر أولوياته ، ليس فقط لأنه "خير جليس فى زماننا وكل زمان".. بل لأنه سوف يبقى صامدا أمام أدوات التثقيف الحديثة التى تعددت وتنوعت تحاول إزاحة الكتاب عن عرشه ، وهو باق عليه متمسك به ، لأن القراءة سوف تظل إلهام الفكر ، ومصدر الخيال ، ومصنع الرؤية الواعية..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(أ) "حوار قومى ... رؤى مختلفة(*)

يبدو الحديث حول "تجديد الفكر القومى" فى هذه الفترة وكأنه حديث فى غير موضعه ، أو هو نوع من اللغو الذى لا طائل من ورائه ، يراه البعض ترفا فكريا أقرب إلى الأحلام منه إلى الواقع ، وكأننا لا نتحدث عن ما هو كائن ، ولكننا نفكر فيما هو كامن .. إن الحديث عن العروبة يبدو للبعض وكأنه على حد التعبير الشائع "كالآذان فى مالطة" فلا الذين سمعوه يؤمنون به ولا الذين يؤمنون به سمعوه ، حتى إن شاعرا عربيا كبيرا تساءل عن موعد إعلان وفاة العرب ، وتحدث الكثيرون على الجانب الآخر عن العرب على أنهم ظاهرة صوتية أو أمة تعيش ـ برغم إمكاناتها الهائلة ـ خارج دائرة التاريخ .

والأمر يدعونا هنا إلى أن نرصد الظواهر المتصلة بواقعنا القومى من خلال منظور موضوعى ، فالصورة تدعو إلى القلق .. مرحلة مختلفة من الصراع العربى ـ الإسرائيلى .. حديث بغير حدود حول المستقبل يعتمد كله على الاجتهادات الغامضة ولا يرتكز على رؤى واضحة .. العراق الشعب والحضارة يبدو وكأنه خارج الدائرة .. العروبة فى الخليج موضع تساؤل غير مسبوق .. الشمال العربى الأفريقى يواجه موجات من العنف والاضطراب يمكن أن تعود به من جديد إلى دائرة العزلة القومية .. علاقة مد وجذر بين التيارين القومى والإسلامى بشكل ينتقص من قدرتهما المشتركة على الامتداد بالتراث الثقافى نحو المستقبل العربى .. تلك هى أبرز ملامح الصورة على امتداد أرضنا العربية قبيل سنوات قليلة من بداية القرن الواحد والعشرين .

(*) هذه أبرز نقاط حديث المؤلف فى ندوتين حول كتابه" تجديد الفكرالقومى"فى كل من بيروت وعمان (الأردن) ـ ديسمبر ١٩٩٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إننا يجب أن نتحدث بكل الصراحة والوضوح ، فنرصد عددا من القضايا المتصلة بتجديد الفكر القومى ومستقبله ـ بعد تجربتيه الكبيرتين قبيل الحرب العالمية الأولى وبعد الحرب العالمية الثانية ـ ونحدد منها المسائل التالية :

أولا : إن المصالحة العربية هى المدخل الذى لابد منه لأى محاولة تتطرق إلى الفكر القومى والحركة العربية ، فهى البوابة التى لابد من المرور بها حتى يخرج العالم العربى من حالة التمزق التى بلغت به ذلك المأزق الذى نواجهه .

ثانيا : إن الموازنة بين الثوابت والمتغيرات هى تعبير عن أصالة الحس القومى ونضوجه، كما أنها تعبير فى الوقت ذاته عن عقلانية الفكر وموضوعية الرأى ، والقادرون على الموازنة بين الاحتفاظ بالثوابت الراسخة واستقبال المتغيرات الوافدة هم أقدر الناس على فهم فلسفة التطور وإدراك حركة التاريخ وصناعة رؤية المستقبل .

ثالثا : إن الخصوصية القطرية مسألة لابد من التسليم بها ، بل إن الانتماء إلى الكيان الأصغر هو تأكيد للانتماء إلى الكيان الذى يكبره ، ولن يكون قوميا عربيا صادقا من لم يكن لبنانيا وطنيا أو مصريا وطنيا أو مغربيا وطنيا ، إنها حلقة متكاملة لا يجب العبث بمراحل تكوينها ، بل إن غلاة القوميين ومنهم عبدالناصر قد تفهموا تلك الخصوصية ، حتى أن شخصية لبنان العربى المتميزة طرحت نفسها بوضوح فى سنوات المواجهة بينه وبين خصومه.

رابعا : إن المستجدات على الساحة العربية لا يمكن تجاهلها مهما كان عمق مشاعرنا القومية ، لذلك فإن التطور فى مراحل الصراع العربى ـ الإسرائيلى والدخول بالتسوية السلمية إلى ما وصلت إليه ، كلها أمور يجب أن يستوعبها أى فكر قومى جديد وألا يغفل آثارها أى متطلع إلى مستقبل أفضل من حاضره.

خامسا: إننا ـ وبغير حساسية ـ نشير إلى موضوع لابد من تناوله وهو أهمية التسليم بالتفاوت فى الثروة بين الأقطار العربية لظروف ندركها جميعا ونعتبرها مصادفة طبيعية تركت أثرها الكبير لا على الواقع الاقتصادى العربى فقط ، بل على مسرح الحياة السياسية العربية كلها فى العقود الخمس الأخيرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سادسا: إن مفهوم الأمن القومى العربى لا يمكن اختزاله لكى يصبح أمن منطقة دون غيرها ، بل هو مدلول شامل يحتوى كل عناصر الاستقرار السياسى والتطور الاقتصادى والتنمية الاجتماعية ، ومن هذا المنطلق فإن الأمن القومى العربى لا يقف عند معنى القوة العسكرية أو القاعدة الاقتصادية، ولكنه يتجاوزهما إلى درجة من العمومية لا تتأتى بغير رؤية شاملة تحتوى الوطن العربى كله دون أن تكون قاصرة على الخليج وحده .

سابعا : إن الطرح القومى للمستقبل العربى يرتكز على قاعدتين اقتصادية وثقافية ، فلقد شهدنا عقودا زمنية متتالية تصدرت فيها السياسة حركتنا القومية فكانت النتيجة إخفاقا كاملا ، لماذا نخجل من أهمية المصلحة المشتركة كجوهر للفكرة القومية ؟ هل لابد أن تكون العروبة تعبيرا عاطفيا خالصا يعتمد على تاريخ واحد وتراث مشترك دون الأخذ فى الاعتبار بمعطيات معاصرة ترتكز على المصالح المتبادلة والمنافع القائمة ؟

ثامنا : إن رؤيتى لمسألة الأقليات فى العالم العربى تنبع من يقينى أنها إضافة إيجابية تعطى المجموع العربى قيمة وتألقا ، فكما أن التعددية السياسية هى مظهر عصرى فإن التعددية البشرية هى تميز إنسانى ، ويتعين هنا أن نتذكر أن فلسفة الوجود قامت على التنميط ولم تقم على نظرية القالب الواحد ، ثم إننى أقول إن الأقليات فى العالم العربى ، سواء كانت قومية أو دينية ، قد أسهمت بشكل فاعل فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وأصبحت جزءا لا يتجزأ منها .

تاسعا : إن أى حديث عن المد القومى العربى الجديد يجب أن يضع فى اعتباره أن تيارا إسلاميا يمارس دورا على الساحة السياسية بشكل غير مسبوق فى القرن الأخير، وهو ما يقتضى الاعتراف بأن علاقة وثيقة تربط الإسلام بالعروبة، ولكنها علاقة تضيف ولا تستبعد، فهى تحتوى فى إطارها العرب من غير المسلمين باعتبارهم شركاء حياة وقدر ومصير .

عاشرا : إن منطوق الفكرة القومية يفترض المساواة بين أطرافها ولا يسمح بسيطرة كيان على سواه . إن بروسيا كانت رائدة فى الدعوة للوحدة الألمانية،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكنها لم تفترض أن التسلط على غيرها يمكـن أن يظـل ركـيزة القوميـة أو دعامـة الاندماج السياسى.

هذه بعض الأطروحات الرئيسية وهى أقرب للمحاولات المتكررة للتفكير بصوت عال ، خصوصا ونحن نمر بمنعطـف قومـى لا نكـاد نجـد لـه نظـيرا فـى تاريخنـا الحديث، فضلا عن التطورات المتلاحقة والتغيرات السريعة التى تطرح نفسها على حاضرنا وتخطط لمسار مستقبلنا ، ويبقـى التسـاؤل معلقـا ، ايـن نحـن مـن هـذه التحولات الدولية والإقليمية ؟ وهل نستطيع اللحاق بركب العصر ؟ وهل نتمكن من توظيف الثروة العربية من أجل المصلحة القومية ؟

إننى أرى أمـــة عاشت طويـــــلا فى ظـل " المنولـوج " وحـان الوقـت لكـى تتجه إلى "الديـالوج" ، فتلـك هـى فلسـفة التـاريخ وطبيعـة التطـور وروح العصـر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(بـ) " حوار قومى .. رؤية جزائرية "

اتصل بى الأستاذ الدكتور أحمد يوسف عميد معهد الدراسات العربية بالقاهرة وسلمنى رسالة من جزأين وصلته من تونس موجهة لى من الاستاذ محمد الميلى إبراهيمى المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وهى تتضمن تعليقا مكتوبا مطولا حول فقرة من كتابى "تجديد الفكر القومى" ، تشير إلى تاريخ العروبة فى الجزائر وكيف أن الإسلام كان بالنسبة للمقاتل الجزائرى دينا وقومية فى وقت واحد حارب فيه المحتل الفرنسى الذى فرض على الجزائر العربية المسلمة ثقافته الفرنسية فى محاولة لطمس هويتها وتصفية شخصيتها ..

وبعد أن قرأت تعليق الأستاذ الميلى تفصيلا لم أجد خلافا جذريا بيننا ، بل وجدت روح التوافق فى الرؤية تطل من بين سطور رسالته ، ولكن أهمية ما كتبه ، والتى دفعتنى إلى السعى لنشره وتعميم الفائدة منه تكمن فى عدد من الأسباب هى :

أولا : إن شخصية فى حجم الأستاذ محمد الميلى إبراهيمى بتاريخه السياسى ووزنه الثقافى تدعو إلى احترام عارفيه وقرائه ، فهو مفكر عربى مرموق ينتمى إلى جيل الآباء فى الثورة الجزائرية ، والرعيل الأول من رواد التعريب بعد الاستقلال ، تقلد وظائف عديدة منها وزير للتعليم فى بلاده وسفير للجزائر فى القاهرة ، قبل أن يتبوأ موقعه الحالى ومقره فى تونس ، فضلا عن نشأته فى بيت علم وأدب فهو ينتمى إلى عائلة عريقة ذات إسهام مشهود فى مسيرة الإسلام والعروبة فى الجزائر .

ثانيا : إن أهمية الاطلاع على فكر الأستاذ الميلى حول قضية الوجود الإسلامى ـ العربى فى الجزائر تبدو أكثر وضوحا على ضوء ما يجرى هناك حاليا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من تداعيات الصراع العنيف بين السلطة والتيار الإسلامى، وهو نتاج تطورات تاريخية مستمدة من التربة الجزائرية بخصوصيتها المعروفة وتميزها المختلف ، وهو أمر يوضح أن ما يجرى هناك لا يتطابق بالضرورة مع تطورات أخرى تجرى فى دول عربية أو إسلامية ، فالجزائر ذات وضع خاص حتى بين دول شمال أفريقيا العربية .

ثالثا : إن الحوار الفكرى بين المثقفين العرب يبدو حاليا من ضرورات المرحلة لأنه يمثل مدخلا هاما لمواجهة الظروف المحيطة بنا ،والتداعيات التى نجمت عن تطورات حولنا ، حتى تكتمل لدينا الرؤية التي تفرق بين الثوابت والمتغيرات وتميز بين الأصيل والوافد .. من هنا تبدو لسطور رسالة الأستاذ الميلى قيمتها الحقيقية كخلفية فكرية وثقافية لأحداث نعيشها وأمور نتحاور حولها .. وسوف يجد القارئ فى رسالة هذا المثقف العربى الكبير إثراء لمفهوم" تجديد الفكر القومى" وإضافة تزيد من قيمة كتابى الذى أتشرف باستقبال هذا التعليق القيم حول طرح فكرى ورد فيه ..

وأستضيف مع الصفحات التالية جزءا من رسالته القيمة التى تعبر عن حس عربى عميق ، وفهم نظرى دقيق ..

عزيزى د. مصطفى الفقى

سلاما وتحية وبعد ،

فقد بادرت إلى إلقاء نظرة على كتابك "تجديد الفكر القومى" لأنه يهمنى أن أعرف أفكارك المكتوبة فى هذا المجال ، من خلال قراءة متأنية، علما بأنى عرفت بعد ـ كما تعرف ذلك ولا شك ـ أهم افكارك من خلال ما أتيح لى سماعه منك فى لقاءات خاصة أو اثناء إلقائكم بعض المحاضرات التى استمتعت بالاستماع إليها ، مثلما استمتعت بالاستماع إلى عدد من شخصيات مصر وأعلامها ، مثل محمد حسنين